وزيــر في الجحـيـم

رواية

د / محمد السيد حسن

obeikandl.com

الطبعة الأولى
الكتاب : وزير فى الجحيم
المؤلف : د / محمد السيد حسن
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : محمد جمال
المقاس : ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٥٣٦٤ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 978 – 977 – 776 – 084 – 3

التجهيزات الفنية والطباعة
دار بسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع
طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم
المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت -محطة المطبعة
شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ - ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩
مدير الإنتاج : أحمد عبد الحليم
رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم

جميع الحقوق محفوظة

obeikandl.com

قفز من منامه مذعوراً مدحوراً يرتجف جسده ارتجافة الحمى، ويتصبب العرق من كل خلايا جسده، ويدق قلبه بعنف حتى يكاد يقفز من بين ضلوعه، وتتلاحق أنفاسه إلى درجة الاختناق.

وأول شئ فعله بعد اليقظة أن تحسس الأشياء التي حوله وأدار بصره يمنة ويسرة لكي يُطمئِن نفسه أن ما رآه ليس من الحقيقة في شئ ، وإنما هو الحلم الرهيب والكابوس المفزع الذي يعاوده بين الحين والآخر منذ سنوات بنفس التفاصيل ونفس الأشخاص ونفس الأماكن حتى أنه في منامه كان يحدث نفسه في كل موقف بما سيتلوه من مواقف .

كانت أصوات استغاثاته أثناء نومه عالية حتى سمعها أهل بيته جميعاً. جرت خادمة المنزل (زهرة) مسرعة وطرقت برفق على باب حجرته ، فلم يقدر على الرد ففتحت الباب قليلاً بما يكفي لدخول وجهها وقالت :

- سلامتك سيدي الدكتور. هل تريد شيئاً؟

فأشار إليها بيده إلى فمه ففهمت أنه يريد ماءً فهرولت وأحضرت له كوب ماء على عجل شربه بكامله وطلب المزيد فأحضرت له كوباً آخر ، شرب منه قليلاً ثم راح يمسح وجهه وشعره بما تبقى من ماء وهو يحمد الله أن نجاه من هذا الكابوس المرعب.

هرعت الخادمة إلى سيدتها (زبيدة) وقالت لها :

- سيدتي إن سيدي الدكتور تعبان جداً ووجهه شاحب كالليمونة وأنفاسه مضطربة.

ثم أردفت : أخشى يا سيدتي أن تكون هذه أعراض الأزمة القلبية التي ألمَّت به العام الماضي.

قامت زوجته زبيدة متكاسلة متثاقلة وسارت على مهل تجر خلفها أردافها العملاقة كما تجر السيارة النقل مقطورتها، كانت لها هيئة عجيبة أثناء سيرها، فصدرها الذي يكتنز أرطالاً عديدة من الشحوم يكاد يحنو بها إلى الأمام بينما أردافها تقوم بمعادلة الكفة وتشدها إلى الخلف وما بين ارتجافها إلى الأمام ومقاومة المقطورة من الخلف تتهادى السيدة زبيدة في مشيتها كأن جبلاً يريد أن يهتز من مكانه.

وصلت زبيدة إلى زوجها الدكتور (حمدي حسين) ووقفت بباب الغرفة دون أن تدخل، وأسندت رأسها إلى حافة الباب سائلة:

- خيراً إن شاء الله؟

نظر إليها من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ولم يشعر بأية ملامح على وجهها ، فعلم أن سؤالها ليس للاطمئنان وإنما هو نوع من أداء الواجب وذَرٌّ للرماد في العيون كما يقول العامة (العزومة الطياري تنفع وقت العتاب).

لم يرد عليها فظلت تحملق فيه وهو جالس متكور في الفراش يضم ذراعيه حول ساقيه وينظر إلى سقف الحجرة. استدارت "زبيدة" وقالت :

- لا تريد أن ترد على سؤالي وأنا أحاول الاطمئنان عليك، أنت حر!

ثم غمغمت بصوت خفيض : (أكيد هو الحلم الذي يزورك بين الحين والآخر ، على العموم اللي بيشيل قربة مخرومة بتخر على دماغه). كانت تقصد أن تقول من طرف خفي "من أعمالكم سُلِّط عليكم".

ظل حمدي في مكانه يحدث نفسه:

- يا إلهي ما أفظع وما أثقل وما أقسى الأحلام على بني البشر. إن آلامها فوق احتمال أعتى الرجال. ألا يكفينا ما نعاني من هموم ومصاعب ومشكلات الحياة أثناء اليقظة.

ثم استدرك وقال : بل ليس هناك وجه للمقارنة بين متاعب اليقظة وأهوال الأحلام.

فمتاعب اليقظة تأتيك متناسبة على قدر وضعك المادي والاجتماعي والصحي.

أما هموم الأحلام فلا حدود لعذاباتها. إنها لا تعترف بأية معايير ولا تراعي أية حرمة وتدوس كل الأخلاق.

فقد تكون رجلاً عظيماً ويشتمك ويضربك أحقر الناس ، وقد تكون ثرياً وتتسول الناس في المنام ، وقد تفقد أعز الأحباب وأغلى الناس في المنام ، وقد تصطدم سيارتك بأخرى فتصير حطاماً وأنت بداخلها ، وقد تفقد أموالك وثروتك، وتخونك زوجتك ، وتُطرَد من عملك. هي فعلاً لا خلاق لها تأتي على حين غفلة وتهجم عليك وأنت أعزل في منامك لا تملك حق المقاومة..

وتظل الأحلام تتطور وتتكاثر كالورم السرطاني الذي يُعرِّفه الأطباء بأنه تكاثر لا نهائي وجبار للخلايا بغير هدف ولا وظيفة وبدون رابط ولا ضابط ولا قيمة مرجوة من هذا التكاثر اللهم إلا تدمير الضحية المسكين الذي يحمله بين حناياه.

قام حمدي من فراشه إلى الحمام فحلق ذقنه وغسل فمه ووجهه بينما زوجته تنظر إليه من بعيد ثم قالت له مؤنبة:

- اخطف لك ركعتين تُخزي بهما عَينيْ الشيطان الذي يتسلى بك.

فرد عليها ساخراً على الفور:

- الله يرحم أباك كان شيخاً من شيوخ الأزهر.

فقالت:

- على الأقل لم يكن ...

وسكتت ثم عملت حركة بيديها تبسط راحة يدها اليسرى ثم تضع حافة يدها اليمنى عليها وتحركها إلى اليمين واليسار. كانت فعلة يطير لها صوابه ولكنه تغافل عنها.

طلب من الخادمة فنجاناً من القهوة ارتشفه سريعاً وطلب من السائق أن يجهز السيارة ثم سأله السائق:

- إلى الجامعة يا سيدي الدكتور.

فهز رأسه موافقاً.

***

obeikandl.com

كان الدكتور حمدي حسين أستاذاً للقانون بكلية الحقوق حصل على الدكتوراه في القانون الدستوري من فرنسا ضمن بعثة الجامعة ، ثم حصل على الدكتوراه في القانون الدولي من ألمانيا على نفقته الخاصة.

كان يعلم أن كلية الحقوق لها مكانتها في تاريخ مصر فقد تخرج منها الوزراء وكبار الساسة. وكانت أحلامه تراوده أن يكون وزيراً. فى شبابه كان يتمنى أن يدخل كلية الطب ولكن مجموعه الدراسي حال دون هذه الأمنية فقد كان نبوغه وعبقريته لم يتفجرا هكذا إلا بعد دخوله إلى الجامعة.

كان الدكتور حمدي أستاذاً عملاقاً صاحب الذكاء المتوقد والأسلوب الشيق الجذاب الذي يملك على السامعين عقولهم وقلوبهم ، وكان واسع الإطلاع في كل ميادين المعرفة ، وكان إذا دخل في مساجلة مع أستاذ من الأساتذة لا يتركه إلا صريعاً يعاني وطأة الهزيمة المريرة.

كان يوم محاضرته عيداً في كلية الحقوق. يحضر الطلاب من جميع سنوات الدراسة في الكلية إلى المدرج حتى يكتظ عن آخره ويجلس بعضهم على الأرض ويُحضِر البعض الآخر مقاعد معهم من خارج الكلية ثم طوَّر الطلاب الأمر فوضعوا شاشة عملاقة خارج المدرج لكي يتابعها من لم يجد لقدمه موطئاً.

كان أسلوبه ساحراً يترك لدى الطلاب إحساساً بأنهم أبناؤه وأحباؤه وأصدقاؤه. كان يطلب منهم ألا يكتفوا بالمنهج الدراسي المقرر بل تتنوع اهتماماتهم وثقافاتهم.

كان نصف الوقت الأول من المحاضرة مخصصاً للحديث عن الأوضاع السياسية في مصر. وكانت مصر في ذلك الوقت من عام ٢٠٠٩ تمر بمخاض عسير ، كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية محط مداولات الناس في كل مكان.

كان نظام الحكم قد تعفن وكان غرور القوة وجبروت البطش قد استبد بعقول أولى الأمر فظنوا أن الدنيا قد دانت لهم. كان الدكتور حمدي يبدأ محاضرته بالهجوم على سياسات النظام الفاشل الذي لم ينجح في إدارة قضية واحدة في هذا البلد.

صال الدكتور حمدي وجال متحدثاً عن الخصخصة التي أدت إلى بيع القطاع العام بأبخس الأثمان مقابل عمولات ضخمة اكتنزها الحكام في حساباتهم بالخارج. وذكر أن القطاع العام الذي قدَّرت مراكز الأبحاث الاقتصادية في الخارج قيمته بألف مليار ، بعدها هبط الرقم إلى ٣٠٠ مليار فإذا بالقطاع العام يباع بـ٣٥ ملياراً ولما تفجرت قضية بيع عمر أفندي انكشف المستور واتضح أين ذهبت أموال الدولة.

وهاجم الوزراء جميعاً واحداً تلو الآخر ، تحدث عن المبيدات المسرطنة والقروض التي يستدينها النظام من الخارج والقروض

التي يستولي عليها رجال الأعمال من البنوك الوطنية ثم يفرون بها إلى الخارج.

وكان حديثه عن العبارة (السلام ٩٨) يفجر الدموع من المآقي خاصة حين يذكر الوقائع الإنسانية التي صاحبت ذلك الحدث الكارثي ، تحدث عن الأم التي وجدوها محتضنة طفلها بعد موتهما وعن الغرقى الذين قطعت الحيتان أجسادهم وهم أحياء.

حينما اقتربت سيارة د. حمدي من الكلية استقبله الطلاب كعادتهم معه بالتصفيق والهتاف ثم بالأحضان والقبلات ثم يصاحبونه أفواجاً حتى المدرج بينما بقية الأساتذة يراقبون في ذهول ما يحدث.

كان يبدأ محاضرته بالنداء على كثير من الطلاب بأسمائهم أين أحمد مراد فيرد رافعاً يده، وأين محمود عبد الله وأين فلان وفلان وهكذا.

وكان هذا يثير شعوراً حميمياً بين الأستاذ وطلابه وبعد انتهاء المحاضرة يصعد إلى مكتبه في الدور الثالث حيث يلتف حوله الصفوة الذين يؤثرهم بمودة خاصة. كان عددهم حوالي عشرة أشخاص يجلسون معه في المكتب ويشربون الشاي سوياً وربما يتناولون الإفطار معه.

ثم يبدأ د. حمدي بالسؤال عن أخبار الكلية كان يطلب منهم أن ينقلوا له كل ما يدور داخل الكلية أو خارجها من أخبار مهما كانت صغيرة أو ضئيلة.

وكان ينصت لهم باهتمام وكانوا يُشْبعون فضوله الذي لا يعرفون له سبباً فمصطفى علىّ تزوج راندا عرفياً هذا الأسبوع ، ومحمود مصطفى توفى والده منذ أيام ، والدكتورة فاطمة تشاجرت مع معيد عندها بالقسم وحولته للتحقيق.

وقد إلتحق بهم طالب جديد من حقوق عين شمس اسمه علىّ عبد الرحمن عيسى ابن المذيعة اللامعة "سوزان البدري" مقدمة أشهر برنامج مسائي مصري (قضايا شائكة).

سرح د. حمدي عندما سمع اسم المذيعة "سوزان البدري"، كان يعلم أن برنامجها يتابعه الملايين داخل مصر وخارجها ، وأنها لا تتورع عن مهاجمة المسئولين أياً كان موقعهم ، وأن ضيوفها دائماً كبار الكتاب والساسة ورجال الأحزاب.

توقف د. حمدي وسأل عن الطالب باهتمام ثم طلب منهم أن يصادقوه ويضموه إلى مجموعتهم وأن يأتوا به في اللقاءات التالية بمكتبه.

كانت أحلام د. حمدي بأن يكون وزيراً للثقافة أو الخارجية لا تفارقه ، وكانت مقالاته في جرائد المعارضة قد لفتت الأنظار إليه ولكنه يعلم

أن محاضراته ومقالاته لن تحقق له الشهرة التي يرجوها. وأن التليفزيون هو الذي يحدد الشهرة والمجد، لأن المشاهدين هنا بالملايين ، أما الصحف فلا يقرؤها إلا مجموعة ألوف من الناس.

لم يكن عسيراً أن يجد طريقة إلى إحدى القنوات الفضائية التافهة التي لا يهتم بها أحد. وحينما سمع عن الطالب (عليّ عبد الرحمن) أدرك أن هذا الطالب الصغير في السنة الثالثة ابن المذيعة اللامعة سيكون طريقه إلى الشهرة التي يحلم بها والتي ستوصله إلى المنصب المرموق.

حضر الطالب عليّ عبد الرحمن إلى مكتب د. حمدي بعد يومين واستقبله بكل حفاوة ، وأغدق عليه الكثير من الحنان والمودة، وسأله عن أحواله وعن سبب تحويله من (حقوق عين شمس) وعن والدته ثم ختم كلامه قائلاً:

- أريدك أن تعتبرني من الآن صديقك وأخاك الأكبر ولا تتردد في طلب أي شئ مني مهما كبر في أي وقت ، وإذا استعصى عليك درس من الدروس أو مادة من المواد سوف أشرحها لك بالتفصيل.

ثم همس في أذنه كلاماً خطيراً لم يسمعه أحد إذ قال له:
- قبل الامتحان سوف أخبرك بالموضوعات الهامة.
وعلل له ذلك الاهتمام بانشراح صدره له وإعجابه بنجاح والدته وموهبتها وثقافتها.

مـرت الأيـام والطالـب يـزداد تعلقـاً بأسـتاذه ويحكـي لوالدتـه بشـغف وإعجـاب وإكبـار عـن أسـتاذه العظـيم وعـن حـب الطلبـة لـه ، وعـن شجاعته في نقد كل أحوال البلد.

وجاء اليوم الموعود ومرض "عليّ" ولزم الفراش فاتصل بـه أستاذه ليطمـئن عليـه ، وحينمـا علـم بمرضـه أخبـره بأنـه سيحضـر لزيارتـه وعليه أن يستأذن والدته وأن يحدد الموعد الذي تكون بـه فـي شقتها لأنه يريد أن يقابلها.

***

obeikandl.com

ذهب د. حمدي إلى تلميذه في الموعد المحدد محملاً بالهدايا الثمينة بعد أن تأكد من وجود والدته في المنزل ، دق جرس الشقة ففتحت له الخادمة وجاء (عليّ) من آخر الشقة فهرع إليه د. حمدي واحتضنه وعاتبه على قيامه من فراشه ، ثم جلسا سوياً في الصالون.

حضرت المذيعة بعد قليل وشكرت الدكتور حمدي على اهتمامه بابنها وحنوه عليه ، وقالت له أن (علياً) لا يمل من الحديث الدائم عن أستاذه.

وحينما بدأت تتكلم وجدها حمدي فرصة سانحة لكي يتفرس ملامحها ، إنها أجمل مما تظهر على الشاشة رغم المساحيق التي يصبغون بها وجوه المذيعات ، إنها جميلة وجذابة وشيقة الحديثة ولها حضور طاغ.

وحينما جاء دوره في الحديث توجه إلى موضوعه مباشرة:

أنا شديد الإعجاب والاهتمام ببرنامجك وأنت مبهرة ورائعة حقاً، ولكنني أرى أن معدي البرنامج لا يتطرقون إلى بعض الموضوعات التي تمس صميم حاضر ومستقبل هذا البلد.

فسألته : مثل ماذا؟

أجابها : مثل الدستور يا سيدتي الذي يُركل بالأقدام وينتهكه الحكام كلما أرادوا.

فسألت : كيف ينتهك الدستور والمحكمة الدستورية تقف بالمرصاد لأي تشريع برلماني أو قرار رئاسي لا يتفق مع الدستور ؟؟

- **المحكمة الدستورية تحمي الدستور القائم الذي بين يديها ولكن الذي يضع مواد الدستور أليس هو الرئيس بعد استفتاء تعرفين أنت جيداً كيف يتم؟**
- **وماذا بعد؟**
- **الرئيس في كل الدول المتخلفة والأنظمة الشمولية يستطيع أن يضع مادة دستورية لا تتفق مع أبسط حقوق الإنسان وكرامته وحريته ، ثم يستفتي الشعب ذلك الاستفتاء الفولكلوري وكالعادة تكون النتيجة "نعم" ثم يأتي دور المحكمة الدستورية لكي تصون هذه المواد اللقيطة.**

- **مثل ماذا؟**
- **مثل قوانين كثيرة سَنَّها الحكام على تعاقب أزمنتهم. أيام فاروق كان العيب في الذات الملكية مثلاً ، وأيام عبد الناصر كان انتزاع الملكية الخاصة بدون وجه حق، وأيام السادات تذكرين مادة الهوانم التي مددت فترة الرئاسة إلى أجل غير**

مسمى ، وأيام مبارك تكفيك المادة ٧٦ التي أضحكت منا الأمم والشعوب.

- وما الحل في نظرك؟
- الحقيقة أنني أرى لحل تلك المعضلة أن يتكاتف العالم الحر للحفاظ على حقوق وكرامة الإنسان وحريته ، لا تكفي المعاهدات الدولية التي توقع عليها الدول ، فهذه المعاهدات تلقى في النفايات ولا يلتفت إليها الحاكم ولا البرلمان ولا القضاء ، فلا حل إذن إلا بأن يكون الدستور مقسماً إلى قسمين: القسم الأول يتحدث عن حقوق الإنسان وحريته وكرامته وينص على عدم التضييق عليه في الرأي أو العقيدة أو الفكر أو استبداد الأغلبية بالأقلية ؛ أما القسم الثاني فيكون خاصاً بالنظام السياسي والاقتصادي وغير ذلك من التفاصيل ، ولابد من أن يكون القسم الأول موحداً في جميع دول العالم بإشراف الهيئات الدولية ممثلة في الأمم المتحدة ومجالس حقوق الإنسان العالمية ، وبذلك يكون الاعتداء على حرية الإنسان اعتداء على دستور أممي عالمي، ويكون إضافة مادة معيبة باستفتاء هزلي يتعارض مع الجزء الأول المقدس من الدستور ، ويضاف إلى مهام المحكمة الدستورية مدى دستورية أي مادة جديدة واتساقها مع الحقوق العامة التي قررها الدستور في بابه الأول .

وترد المذيعة متعجبة : أتريد أن تصوغ دستوراً للعالم كله؟!

فيرد عليها د. حمدي: أليست المعاهدات الدولية ومواثيق حقوق الإنسان التي توقع عليها كل الدول بمثابة دستور أممي ولكنها لا تنفذ ، بل أن هذه المعاهدات يكون في صُلْبها ضرورة أن تكون جزءاً لا يتجزأ من القوانين الخاصة بالدول ولكن لا أحد يلتفت إليها أو يعيرها اهتماماً ؟

فترد المذيعة: ولكنها فكرة خيالية أن تخاطب العالم كله في ذلك. ثم كيف يتم هذا الطلب العجيب؟

يرد حمدي: لقد خاطبت زملائي من أساتذة الدستور في معظم الدول الأوروبية واتفقنا فعلاً على مؤتمر دولي ترعاه الأمم المتحدة لبحث كيفية حماية الدساتير من المواد اللقيطة التي يخترعها الحكام ، وسوف يصدر عن هذا المؤتمر توصيات نرفعها إلى السكرتير العام للأمم المتحدة لبحثها واتخاذ اللازم نحوها ، وكثير من الأحلام التي تحققت بدأت بفكرة حالمة ثم صارت واقعاً ملموساً.

فسألته: هل كان حصولك على الدكتوراه في القانون الدولي إضافة إلى الدكتوراه الأولى في القانون الدستوري دافعاً وراء ما تفكر فيه؟

فرد بسرعة: ها هو ذكاؤك الخارق يلمح مالا يلمحه الآخرون.

فقالت: هل يمكن أن أستضيفك في إحدى حلقات البرنامج معي لتشرح ذلك للرأي العام وللساسة بأسلوب مبسط يفهمه عامة الناس؟

فرد عليها: طبعاً بكل سرور فأنا يشرفني أن أكون في ضيافة الإعلامية الأولى في مصر وهذا رقم هاتفي اتصلي بي وقتما تشائين. ثم همس في داخله يُحدِّث نفسه (وهل أتيت إلى هنا يا سوزان إلا من أجل ذلك؟)

***

obeikandl.com

خرج د. حمدي من عند سوزان يمتلئ غبطة وفرحاً وإعجاباً بقدراته ويُمنِّي نفسه باقترابه من أهدافه التي لم يفصح عنها يوماً لأحد. كان يعلم أن برنامج "سوزان البدري" سيكون له دويّ شديد ، وستتهافت بعده الفضائيات على استضافته، وسيكون صوتاً مسموعاً بقوة لدى أصحاب القرار الذين لا يشعرون به ولا بقدراته.

كان يعلم أن تَبَوُّء المناصب لابد أن يمر بمرحلة الشهرة الإعلامية أولاً حتى يعرفه العامة والخاصة ، وسوف يستعرض في البرنامج إمكاناته الحوارية ولباقته المدهشة عند طرح آرائه، وسوف يستعرض أيضاً علمه وثقافته. لابد أن يملك أفئدة وعقول أصحاب القرار في هذا البلد. ويكفي له أن يثير قضية الدستور الدولي هذه ليفهم أولئك أنهم أمام عبقري متبحر في علومه وثقافته ، أليست هذه مؤهلات المناصب العليا؟

كان حمدي ينتمي إلى أسرة فقيرة من إحدى قرى محافظة الدقهلية ، وكان أبوه يعمل حلاقاً متجولاً وحاول حمدي معه كثيراً أن يقلع عن هذه المهنة إلا أنه رفض وقال له بحدة: هذه هي المهنة التي علمتك منها.

وحاول حمدي أن يشتري له صالوناً ولكنه رفض أيضاً مفضِلاً أن يظل هكذا حتى لا يقل دخله.

كان الوالد يَحْلق لزبائنه في المكان المفضل لديه على كوبري القرية ، وكان منظره مثيراً للشفقة والضحك في آن. كان يجلس متربِّعاً وأمامه الزبون متربِّعاً كذلك ، ويبدأ الحلاقة بأن يمد كل منهما رأسه تجاه الآخر حتى إذا جاءت لحظة حلاقة الوجه بالفتلة كنت ترى منظراً عجيباً ، فالرجل يمسك الفتلة بكلتا يديه ثم يمد (بوزه) ذهاباً ورجوعاً في منظر يضحك كل الحاضرين.

كان الرجل يشعر بمرارة تجاه حمدي لأنه لا يساعده مادياً، وكانت أمه ترضى منه بالقليل وتتوسل إليه أن يزورها باستمرار فقد فات من عمرها الكثير ولم يبق إلا القليل وكان يَعِدُها ولا يفي بوعده.

وقررت ذات يوم أن تأخذ زوجها وتزور ابنها وكان استقبال حمدي لهما استقبالاً فاتراً ، وظل ينظر من البلكونة ليتأكد من ملاحظة أي من السكان أو الجيران لهما أثناء صعودهما إليه ، وقد فطن الوالدان لذلك وأقسما جَهد أيمانهما ألا يعيدا التجربة مرة أخرى. كان هو أكبر الأبناء وكان له أخ مهندس سافر إلى أمريكا ولا يعرف عنه أحد شيئاً رغم تباعد السنين.

أما أخوه الأصغر فقد حصل على دبلوم الصنايع ، وتوسل إلى أخيه حمدي أن يجد له وظيفة ، فلما يئس عمل خراطاً في مخرطة يتقاضى منها الفتات ، وبعد ذلك تزوج من إحدى بنات القرية واستأجر شقة متواضعة بالقرية نفسها.

ولـه أختـان متزوجتـان لـم يـذهب إلـى زيارتهمـا منـذ الـزواج وكـان الأزواج يعـايرون الزوجـات بـذلك فينتحلـون الأعـذار بحجـة انشـغاله الدائم. أما أسرته الصغيرة فكانت مكونة من (زبيدة) تلك الفتاة التي تعرف عليها أيام كان معيداً حديث التخرج في نفس الكلية وقد أقام معها علاقة طويلة عاشرها فيها قبل الخطوبة عشرات المرات ثم قبل الزواج مئات المرات.

ولما حان موعد الزواج كان زواجهما "كالطبيخ البايت" حيث غلب الملل والسأم على حياتهما الزوجية منذ البداية ، وكان يتهمها بأنها سليطة اللسان متجهمة دائماً أو كما يقول "إمرأة ببوز" وكانت تتهمه بالتسلط والاستهانة بها واتهامها بالجهل رغم حصولها على ليسانس الحقوق. ومرت حياتهما كئيبة مملة يتخللها الشجار العنيف في معظم الأيام.

وكان هناك سبب خفي لتدهور علاقتهما متعلق بالفراش. كان يهجم عليها وينحط فوقها كالفحل (كما ذكرت لأخواتها) ثم يقوم سريعاً سريعاً لا يبالي بها وهي مستلقية على الفراش متعجبة ذاهلة.
كانت تسأل نفسها كثيراً ألا يشعر أن الأداء السريع هكذا عار على الرجل؟ أم أنه يعلم ولا يبالي؟ وكانت تنتهي إلى نتيجة مفادها أن الاحتمالين كلاهما أسوأ من الآخر.

وتجرأت ذات مرة وسألته:

- **لماذا تغادر هكذا بسرعة؟**

وكان واقفاً ساعتها أمام المرآة فضحك قائلاً:

- **أنا هكذا مثل القطار السريع الذي يصل إلى محطته بسرعة مع الركاب وربما قبل الركاب.**

وأعجبه التشبيه خاصة كلمة (يصل قبل الركاب) وتساءل بصوت مسموع وهو واقف أمامها:

- **يصل قبل الركاب تصورى !**

ثم ينخرط في ضحك متواصل : كيف يصل القطار مهما كانت سرعته قبل الركاب؟ ثم يبدي ضحكه وإعجابه بهذه المفارقة وهي نائمة واجمة ، ثم قررت أن تفاتح أخواتها المتزوجات في هذا الوضع العجيب فأشرن عليها أن تطلب منه أن يبحث عن علاج.

ولكنها قالت:

وهل مثل هذا الذي يتندر و يتفكه بمثل هذه المصيبة يمكن أن يبحث عن علاج؟

وتحدثت الزوجات مع أزواجهن ، وبينما هم جلوس معاً ذات يوم ولم يكن معهم من النساء أحد. تحدث أحد الأزواج عن موضوعات شتى وعن الضعف الجنسي وعن الطبيب المشهور الذي يعالج هذا الأمر ،

obeikandl.com

وتحدث برقة ولباقة عن أن الانتهاء السريع في الفراش أحد هذه المعضلات التي اخترع لها الطب الحديث علاجاً.

وفهم حمدي المراد على الفور، فلم يكن ذكاؤه بالشئ الهين وأدرك أن زوجته تحدثت إلى أخواتها. ولم يفاتحها بشئ ولكن كان هذا سبباً إضافياً لانصرافه عنها حتى صارت حياتهما بؤساً لا يطاق.

كان أولاد حمدي من الذكور "أحمد" المحاسب في بنك مصر فرع المنصورة ، ومصطفى الطالب بكلية الطب بالمنصورة ، وهناء صيدلانية تزوجت من صيدلاني في (دكرنس) ، وبسمة محاسبة أيضا متزوجة من مهندس مدني في (شربين).

كان حمدي يحب أولاده حباً جارفاً وكانوا يبادلونه الحب والإعجاب خاصة مصطفى الأصغر ، ولكن غزواته النسائية التي سمعوا بها همساً في أول الأمر ثم جهراً بعد ذلك تركت في نفوسهم ندوباً وجراحاً لا تلتئم ، وكان مستحيلاً أن يفاتحه أحد أولاده أو بناته فيما يسمعون.

فقط "زبيدة" زوجته هي التي كانت تلقي إليه بكلمات يفهمها ويتظاهر بأنه لم يفهم ما تقصد إليه ، ولا تستطيع هي أن تصارحه لأنها لا تملك الدليل.

أما علاقته بأهل قريته فكانت معدومة لا ينزل إليهم في زواج أو عزاء وحاول أهل قريته أن يلفتوا نظره لذلك وكان يتعلل بانشغاله الدائم ولكن السبب الحقيقي كان يكمن في أنه لا يستطيع أن يقف في طوابير العزاء بين الدهماء والرعاع ينتظر دوره لتقديم العزاء.

وكان إخوته يحدثونه بأن تقديم العزاء من التقاليد الراسخة في الريف والحضر ، وأن أهل المتوفى لا ينسون أبداً من تقاعس عن عزائهم ، وأن الدنيا سلف ودين كما يقولون فكان يقول لهم المثل العربي الشهير "إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها" ويُفَصِّل ذلك قائلاً: بعد موتى لن يفيدني أو يضرني إن حضر القليل أو الكثير عزائي.

أما علاقته بزملائه من الأساتذة فكانت متقطعة متهتكة. يختلط بعض الوقت بأحدهم ثم يراه نِداً لا يسمع ولا يُطيع فيتركه ويبحث عن إمعةٍ لا تلبث علاقتهما إلا أسابيع أو شهوراً حتى تنقطع.

كان اجتماع الرجال والنساء معاً هو الذي يثير اهتمامه وسعادته ، فكان يفتتح الحديث في موضوع ما ثم يستفيض بصوت عال لكي تسمعه النساء قبل الرجال ، ويظل يشرح ويُفسِّر ويعلق دون أن يترك لأحد الجالسين مجالاً. ولم يكن عسيراً على الرجال أن يفهموا أنهم ليسوا المقصودين بهذه المحاضرة الطويلة فينصرف كل منهم عازماً على عدم تكرارها إلى الأبد.

خرج حمدي من لقائه بالإعلامية الحسناء سوزان ، وقرر أن يحتفل بهذا الحدث مع عشيقته "نشوى" التي يمارس معها الحب بين الحين والآخر كلما سنحت الظروف في فيلا يملكها بالساحل الشمالي في (مارينا)، كانت الفيلا رائعة تطل على المياه الزرقاء للبحر الأبيض المتوسط وهواؤها العليل المشبع برائحة اليود ونسماتها المنعشة تطرد من النفوس الكدر والملل.

وكانت أسرته تذهب إليها بصحبة حمدي في معظم أوقات السنة. كان جمال الفيلا يغريهم بزيارتها حتى في الشتاء القارس. اتصل حمدي بنشوى ودعاها إلى لقائه لأن لديه مفاجأة سارة يريد أن يخبرها بها.

جاءت نشوى على عجل وقد صورت لها أحلامها أنه ما طلبها إلا لكي يزف إليها قراره بالزواج منها كما وعدها مرات كثيرة.

كانت نشوى أجمل طالبات كلية الحقوق على الإطلاق ، وكانت تتمتع إلى جانب جمالها بذكاء خارق وشخصية جذابة وحب عارم للحياة يظهر عليها من كثرة حركاتها وضحكاتها وسرعة مشيتها وكثرة تبديل ملابسها وتسريحة شعرها.

كانت قبل حمدي لها قصة حب مشهورة مع زميلها محمود منذ دخلا الكلية سوياً ، وكانا متلاصقيْن دائماً لا يُرَى أحدهما بغير الآخر ،

واتفقا على الزواج بعد التخرج مباشرة. لمحها الدكتور حمدي ذات يوم فملكت عليه عقله وقلبه وأثارت فضوله واهتمامه ، فكلف الفريق المعاون له في الكلية بأن يضموا إليهم محمود ونشوى.

وهل يملك أحد من الطلاب أن يرفض لقاء أو صحبة أشهر أساتذة الجامعة والجلوس معه في مكتبه الخاص بالكلية؟ فقد كانت حكاياته عن اهتمامه بمجموعته تثير فضول الباقين. كانوا يسمعون أنه يعطيهم مالاً والبعض الآخر يقول أنه يعطيهم أسئلة الامتحان وآخرون يرون أنه يستضيفهم ليلاً على العشاء في أحد النوادي الشهيرة ليكونوا عيوناً له داخل الجامعة.

وتردد محمود فقد كان لديه توجس غامض من الذهاب إلى د.حمدي ، حيث كان يغار على نشوى ولا يريد لأحد آخر أن ينال إعجابها ولو كان أستاذاً لها.

ولكن نشوى تعجبت من تردد محمود ولم يكن لدى محمود ما يقنعها به إلا الشعور الدفين بالقلق ، وهذا وحده ليس كافياً أمامها فوافقها على مضض وذهبا إلى مكتبه معاً.

كانت نشوى محط إعجاب الجميع بلا منازع. وتأملها د.حمدي ملياً رأى الوجه المستدير كالقمر في ليلة التمام والشعر الأسود الفاحم الذي ينسدل في دلال على كتفيها والعينين العسليتين بدون عدسات لاصقة وضحكاتها الساحرة التي تخلب الألباب.

رأى محمود في عيني حمدي ما كان يخشى منه وأدرك أن الأمور تسير في طريق محفوف بالألغام ، رأى انبهار الأستاذ بتلميذته ورأى سعادة التلميذة بصداقة أستاذها .

وكان من العادات المعروفة لدى مجموعة د. حمدي أن يترك الجديد منهم أرقام تليفوناته الخاصة بالمكتب. وفي المساء اتصل بها د. حمدي وشكرها على حضورها إلى مكتبه في الصباح وعرض خدماته كالمعتاد.

وتكرر اتصاله بها ثم طلب منها أن تتصل به لكي يَطْمَئن عليها بين الحين والآخر. وسألها محمود إن كان د. حمدي يتصل بها فأنكرت. وكان هذا مؤشراً لديها أن د. حمدي صار له موقع خاص أكثر من الأستاذ وأكثر من الصديق.

وتكرر اتصاله بها واتصالها به ، وبدأ محمود يشعر بفتور من نشوى ثم تطور الفتور إلى إهمال ثم إلى إعراض ونفور ، كانت المقارنة بين الطالب محمود المسكين والأستاذ الكبير في غير صالح محمود على الإطلاق ، ولم تصمد نشوى طويلاً في المقارنة بينهما فأطلقت لمشاعرها العنان وزاد تعلقها وجنونها بحمدي الذي وعدها بالزواج حينما تسنح الظروف ، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى رقدت نشوى بين أحضان حبيبها الجديد في فيلا الساحل الشمالي.

ظل محمود يبحث عن نشوى ويتودد إليها ويتوسل إلى صديقاتها ويحدثها في الهاتف ، فيكتشف أنها غيرت رقمها. وحدثه قلبه أن حمدي وراء ذلك كله فقرر أن يراقبها من بعيد ، ومكث أمام بيتها ليالي طويلة ، وفي إحدى الليالي نزلت نشوى وانتظرت فترة يسيرة حتى جاء حمدي بسيارته فأخذها معه.

ودخل محمود في دوامة محزنة من الأرق والقلق والبكاء والعزوف الكامل عن الطعام وانصرف عن دروسه وعن الحضور إلى الكلية. وجاهدت أسرته لتعرف سر تغيره وحزنه الدائم فلم تصل لشئ ، فاتصلوا بأصدقائه الذين حضروا وسهروا مع محمود ثم اصطحبوه معهم وظلوا يواسونه ، ثم اتفقوا معه أن يناموا سوياً ويأكلوا سوياً ويذهبوا إلى الجامعة سوياً ، وبدأت حالته في التحسن التدريجي وأنعم الله عليه ببعض الثبات وقليل من النسيان.

كان يراها عن بعد فيخفق قلبه ويتمنى أحياناً لو أطبق على رقبتها فخنقها ثم تلمع عيناه بدمع خفيف شفاف وتعاوده أمنياته في مرات أخرى أن تحادثه وهو على استعداد لأن يغفر لها ما سلف. وفي مرات كثيرة تلح عليه ذكرياتهما معاً على شاطئ النيل بالمنصورة وهما يقطعان الطريق ذهاباً وإياباً من الجامعة إلى مبنى المحافظة وهما يأكلان الذرة المشوية أو الترمس أو ساندوتشات الفول والطعمية ثم تتأبط ذراعه في دلال حتى يوصلها إلى بيتها ويختلس منها قبلة سريعة أسفل السلم المظلم.

حضرت نشوى إلى لقاء حمدي متلهفة وقد ارتدت أجمل ثيابها وتزينت فأصبحت في أجمل زينتها فزادت بهاءً إلى بهاء وجمالاً إلى جمال واستقبلها حمدي في سيارته في المكان المحدد وانطلقا إلى عشهما القديم في الساحل الشمالي.

سألته في الطريق عن المفاجأة التي تحدث عنها ، فأجابها: هكذا بسرعة؟

قالت: إنني في أشد الشوق لسماع مفاجأتك الجميلة.
قال: اسمعي يا حبيبتي سوف تستضيفني الإعلامية الشهيرة سوزان البدري في برنامجها الشهير وبعدها طبعاً سوف تتسابق الفضائيات كلها لاستضافتي ، وسيكون هذا باب النجومية والشهرة التي تفتح لي الأبواب المغلقة.

ردت: مبروك ألف مبروك ، هذا شئ تستحقه وأكثر منه ، ثم صمتت بعدها وظهرعليها الانكسار وخيبة الأمل.
سألها: ماذا بك يا نشوى؟ كنت أظن أنك ستسعدين معي بذلك!

ردت: طبعاً فرحانة جداً وسعيدة، هل عندك شك في ذلك؟!
قال لها: ولكن وجهك لا يعبر عن ذلك ونبرة صوتك وقسمات وجهك تشي بالحزن وليس بالسعادة!

ردت: لا تشغل بالك. ذكريات قديمة وأحداث جديدة لا تهمك.
رد قائلاً: أنا أعرفك جيداً يا نشوى ، قولي الحقيقة ماذا بك؟

فقالت: بصراحة كنت أتصور ساذجة أنك أوشكتَ أن تفي بوعدك الذي وعدتني به مراراً. تصورت أنك ستتقدم لأسرتي بطلب الزواج ولكنك خيبت رجائي فيك مرة أخرى ، أنت لا تدري حقيقة وضعي الأسري منذ تخرجي ، أصبح وضعي سيئاً لكثرة تهربي ممن يتقدمون لخطبتي وأنا أرفض أمام أهلي بدون سبب مقنع حتى صارت الشكوك تساورهم. وسألتني أمي بصراحة إن كان في حياتي رجل فلماذا لا يتقدم؟ ووالدي وأخوتي ينظرون إليَّ بريبة مختلطة بالاشمئزاز حتى أصبحت حياتي بينهم لا تُطاق ، كل هذا وأنت في وادٍ آخر لا تريد أن تنهي معاناتي ، وكل يوم وعود جديدة لا تتحقق ، ومازال الأمل يحدوني أن ترفع رأسي أمام أهلي.

شرد حمدي بذهنه وتشاغل بتعديل وضع مُكيِّف السيارة وتغيير اتجاه الهواء البارد المنبعث منه.

ثم قال: طبعاً طبعاً يا حبيبتي سوف نتزوج بدون شك وتدركين ظروفي لابد أن أختار الوقت المناسب لكي أشرفك بشبكة جميلة ، وشقة فارهة ، وأثاث يليق بك. وتعلمين أيضاً أنني منشغل في التحضير لبعض الأحلام المستقبلية التي تهمني وتهمك طبعاً باعتبارك زوجتي. وورائي بعض رسائل

الدكتوراه التي سوف تناقش الشهر القادم وأنا رئيس اللجنة المكلفة بمناقشتها ولابد أن أكون مطلعاً عليها جيداً.

فردت: ومتى ينتهي هذا كله؟ وهذه مشاغلك العادية كل يوم، هل تقبل أن أظل هكذا عانساً أمام أهلي رافضة لكل الخُطَّاب من كل المستويات ومن كل فج عميق؟! هل أظل كالبيت الوقف كما تقول أمي؟!

رد حمدي: أعِدُكِ أن ينتهي كل شئ قريباً يا نشوى يا حبيبتي فلا تفسدي هذه الليلة الجميلة ودعينا نرتشف السعادة والحب.

وهَمَّ بتقبيلها ولكنها رَدَّتْه عنها وأبعدته برفق وقالت:

- أرجوك دعني الآن فأنا معتلة المزاج ويستحسن أن تعيدني إلى بيتي.

أدرك حمدي ساعتها أن الليلة سوف تضيع منه وأن السلبية واللامبالاة التي يتحدث بها لا تسمن ولا تغني في هذه الحالة فالبنت ذكية ولماحة ولابد من معالجة الموقف بطريقة أكثر كياسة من ذلك حتى لا تذهب الليلة هباءً منثوراً.

أبطأ حمدي من سرعة سيارته ثم انحرف إلى يمين الطريق وتوقف قائلاً بكل شوق وحرارة:

- ماذا بك يا حبيبتي؟ أنت تعلمين أنني لا أستطيع العيش بدونك فأنت الشعاع الذي يضيء حياتي وأنت الشجرة الوارفة التي أستظل بظلها من قيظ الحياة.

كان حمدي صادقاً في مشاعره ناحيتها أما حكاية الزواج فلم يكن لها موقع من تفكيره. كان يريد حباً وعشقاً بلا ثمن. فاندفع بحرارة قائلاً:

- لا تصدقي وساوسك فسوف نتزوج خلال شهرين على أقصى تقدير ، وأنا أكثر منك اهتماماً بهذا الأمر لأني لا أطيق فراقك.

لمعت عينا نشوى بسعادة عارمة بعد هذا الطوفان العاطفي، وحاولت أن تطرد هواجسها وشكوكها واستسلمت لتصديقه ومالت برأسها على كتفه، ثم قالت له محذرةً منذرة:

- أرجوك لا تخذلني هذه المرة أيضاً. أرجوك لا تحطم كبريائي وكرامتي فأنا اشعر أحياناً أنك تتلهى بي.

رد عليها: عيب منك ذلك واسألي قلبك وسوف يجيبك بكل ما أريد قوله.

وطبع قبلة على جبينها ثم أدار سيارته وانطلق.

***

وصل العاشقان إلى مخدعهما في الساحل الشمالي ثم تناول كل منهما حماماً ثم أحضرا المأكولات البحرية التي جهزها د.حمدي من كل الأصناف ، ثم تناولا الطعام وهما جالسان ينظران إلى المياه الصافية التي ينعكس عليها ضوء القمر بينما نسائم البحر تهب عليهما حتى طارت بعض الأوراق والأطباق الورقية وكان يسارعان إلى استرداد ما يطير ويضحكان ويتعانقان.

ثم قاما إلى الداخل فجهز حمدي كأسين من الويسكي الذي يفضله ، ثم أدار المسجل على رائعة أم كلثوم "هذه ليلتي" رقصت نشوى حتى حَلَّ بها التعب فارتمت ضاحكة في أحضان حمدي فحملها حمدي وألقاها على السرير وانقض عليها واكتملت الرحلة إلى منتهاها.

ثم جلسا منهكين وأشعلا سيجارتين ثم بدأ حمدي في نوبة من الضحك المكتوم بدون سبب ، كانت له ضحكة نسائية متواصلة تتملَّكه أحياناً يضع خلالها كفه الأيمن على نصف وجهه ، وفي كل مرة من المرات السابقة كما في هذه المرة كانت نشوى تسأله عن سبب ضحكه فلا يجد جواباً شافياً إلا هذه العبارة المعتادة:

- من شدة سعادتي.

ولكنها في هذه المرة شعرت بغيظ وحنق فردت عليه:

- ولكن السعيد لا يقهقه هكذا.

فينقطع ضحكه من الخجل فترة ثم تعاوده نوبة الضحك الماجن مرة أخرى مع وضع يده على وجهه بينما هي تنظر إليه في تعجب مخلوط بالدهشة والازدراء.

نهضت نشوى متحفزة كالنمرة المجروحة وقد فقدت صوابها:

- هل تريد أن أعرِّفك لماذا تضحك؟ أنا أخبرك بالسبب ؛ أنت تضحك لأنك تظن نفسك صياداً ماهراً نجح في التقاط فريسته...
أليس كذلك؟

كان وقع هذه العبارة صاعقاً عليه. كان يعلم أن ذكاءها حاد بدرجة ملفتة ، وبصيرتها نفاذة ، وشخصيتها قاهرة ، ولكنه لم يتوقع أن تواجهه بشئ يكمن في داخله ربما لم يكن هو متأكداً من حقيقته فصمت مذهولاً ولم يعقب. وبينما هو يتطلع إليها ملياً ويتفرس ملامحها الحادة الغاضبة قالت له:

- أريد أن أعرفك شيئاً آخر وهو أنك لست صياداً ماهراً ولا يحزنون ، لست أسداً أو بطلاً كما قد يصور لك خيالك المريض ، بل أقولها لك صراحة إنك لست رجلاً من البداية لأن من ينهي شهوته الجنسية في دقيقتين قبل أن تصل شريكته إلى النشوة ليس رجلاً على الإطلاق.

وقعت الكلمات عليه وقع الصواعق المتتالية ، ثم استبد به الغضب المجنون ، ووقف كالوحش المفترس:

- ماذا تقولين أيتها المومس العاهرة؟؟!!!

وظل يردد: أنا لستُ رجلاً؟ لستُ رجلاً؟!!!

ثم اندفع إليها بكل قوة يضربها بيديه ورجليه وهي تقاوم بكل ما تستطيع ثم تَفَلَّتت منه ووقفت في ركن من الصالة وهي تصرخ:

- أتضربني يابن حلاق الكوبري؟

كانت هذه هي الصاعقة الثالثة التي حطمت كيانه ودمرته وهدت قواه فارتمى مصعوقاً مهزوماً على أقرب مقعد ، وظل يتمتم بحروف مقطعة وكلمات مبعثرة..

- ماذا تقولين؟!! حلاق؟؟!! حلاق الكوبري؟؟!!! ما هذا الهذيان أيتها الحمقاء المعتوهة؟؟!!!
- فردت عليه: أنت تعلم أنني لا أهزي وأن أباك حلاق متجول وقد كتمت سِرَّك طويلاً عندما كنت أحسن الظن بك ولكنك لا تستحق.

وعندما أتمت حديثها كان قلبه يدق بين ضلوعه بكل عنف، وأنفاسه تتلاحق كمن يعدو منذ ساعات طويلة ، وحاول أن يتكلم ولكن جفاف حلقه وخفقان قلبه واضطراب تنفسه لم يترك له سبيلاً ، حاول أن

يقاوم لكي يحضر لنفسه كوباً من الماء فلم تحمله قدماه وسقط على المقعد ثانية.
أدركت نشوى من هول منظره أنها قد أجهزت عليه ولكنها لم تشعر نحوه بشفقة ، وقامت على عجل وارتدت ثيابها وحذاءها وانسحبت بسرعة وأغلقت الباب وراءها بكل عنف وهرولت لتجد وسيلة تعود بها إلى منزلها.

مكث حمدي ثلاثة أيام في الفيلا يصارع الذبول والنحول والحزن والأسى ثم تمالك نفسه وقرر الذهاب إلى القرية.

حاول مرة أخرى مع والده ولكن والده كان يتلذذ بعذاب ابنه على عكس الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وذهب لأخواته يطلب منهن أن يقنعن والدهن بالانزواء داخل أحد المحال أو الإقلاع نهائياً عن مهنته وسوف يعوضه عن ذلك ، ولكن الأخوات أدركن أنه إنما جاء لغرض يتعلق بطموحه ووضعه الاجتماعي.

لم يخطر بباله أن يحضر شيئاً من الحلوى لأبنائهن ولا شيئاً من الفاكهة يُظهرْنَها أمام أزواجهن عند رجوعهم من أعمالهم. كان مشغولاً بشئ واحد وهو كيف يتخلص من عار أبيه كما يسميه. قصد أخاه الأصغر فرحب به وطلب من زوجته أن تعد له عشاء يليق بالأكابر. وفاتح حمدي أخاه في موضوع مهنة والده فقال الأخ الأصغر أن والدهما لا يثق في وعود حمدي ويعلم أنه سيفقده عمله ثم لا يفي

بوعوده. وأقسم لـه حمدي أن ذلك أوهام وتخيلات غير حقيقية ثم طلب أن يتدخل الأخ الأصغر لضمانه عند والده.

وبعد أن تناول الطعام عند أخيه شرب الشاي وكان التليفزيون مفتوحاً يعرض فيلماً تتخلله لقطات جنسية صارخة وهمّ صاحب البيت بإغلاق التليفزيون أو تغيير القناة ولكن حمدي ضاحكه قائلاً: "يا أخي دعنا نرى ما سيكون بعد ذلك من أحداث"، وضحك الأخ وزوجته ، فما كان له أن يرفض أمراً من أخيه الأكبر.

ظل الفيلم ينتقل من لقطة فاضحة إلى لقطة صارخة أخرى ورأى الأخ الأصغر شيئاً تشيب له الولدان. رأى حمدي ينظر إلى زوجته بين الحين والآخر ، وينظر مرة إلى شاشة التليفزيون ثم ينقل نظره إلى الزوجة التي لاحظت الشبق في نظراته ، فقامت مسرعة إلى الداخل بينما قام الأخ فأغلق التليفزيون ولم يتفوه بكلمة ، وفهم حمدي أن سعاره الجنسي قد انكشف فراح يعلق على الفيلم ويذكر بعض الملاحظات عليه ولم يستمع إليه أحد بينما أصوات صادرة من داخل الشقة فيها تكسير وتحطيم ، فدخل الأخ الأصغر إلى زوجته فواجهته قائلة:

- أقسم لك بالله لو حضر هذا الأفندي (المحترم) هنا مرة أخرى فلن أكون لك زوجة يوماً..

وسمع حمدي ما دار وحينها هَمَّ بالانصراف فلم يَسْتَبْقِهِ أخوه ولم يوصله إلى الباب وحينما قال السلام عليكم لم يرد عليه أحد.

وأغلق الأخ الأصغر الباب وراءه بعنف وراح يبصق خلفه وجلس أمام زوجته غاضباً حزيناً مذهولاً من هذا الموقف الذي تعرض له ، ووعد زوجته بأنه لن يدخله إلى شقته مرة أخرى ولن يكلمه أو يتعامل معه حتى لو دعته الضرورة لذلك.

***

obeikandl.com

فـي إحـدى الأمسـيات اتصـلت سـوزان البـدري الإعلاميـة الشـهيرة بالدكتور حمدي وسألته إن كـان اليـوم التـالي يناسبه لتسجيل الحلقـة فرحب على الفور فقالت لـه أنها ستبعث من ينهي لـه تصريح الأمن ، وأن أحد الإداريين سينتظره عند المدخل الساعة السابعة مساءاً.

وفـي الموعـد المحـدد تمامـاً ذهـب د. حمـدي محمـلاً بكـل وثائقـه ومستنداته ، ووجد أن سوزان قد رتبت له كل شئ بدءاً من تصريح الأمن ثم الإداري الذي استقبله بحفاوة وصعد معه إلى الدور السابع ، وأدخلـه إلـى غرفـة الاسـتقبال الملحقـة بالاسـتوديو، وهنـاك جـاءت سوزان مرحبة به ومنهمكة في التجهيز للحلقة مع فريق المعدين.

وأثناء شربه للقهوة تحدثت معه عن الخطوط الحمراء التي لا ينبغي تجاوزها لأن البرنامج يذاع مباشرة على الهواء. وأفهمتـه أن القنـاة وإن كانت تتحرك ببعض الحرية إلا أنها مملوكة لرجل أعمال شأن كل القنوات الفضائية. ورجـال الأعمـال لا يحبون أن يغضبوا أولـي الأمر حتـى لا يـتم تـأديبهم مـن قبـل الضـرائب العامـة والضـرائب العقاريـة ، وتأمينات العمـال والمـوظفين ، والأمـن الصـناعي ، ومكتـب العمـل. ثـم الطامـة الكبـرى لـو غضـبت علـيهم البنـوك وطـالبتهم بالسـداد فـي المواعيد المحددة ورفضت جدولة الديون لهم...
رجال الأعمال الذين يتولون توجيه دفة الرأي العام في البلد مكبلون بكل القيود أمام السلطة وخانعون لها ومنبطحون ومخنثون أمام أمن الدولة.

وبدأت الحلقة على الهواء مباشرة بتقديم من سوزان البدري للدكتور حمدي حسين وعرفته للجمهور بأنه الفقيه الدستوري والكاتب المعروف والأستاذ الجامعي الأشهر.

تحدث دكتور حمدي سريعاً عن الدستور وضرورة حمايته ، وكان بذكائه المعهود يعلم أن الحديث عن الدستور ليس حديثاً شيقاً ولا جاذباً لغالبية المشاهدين ولذلك تحدث عنه في عجالة ليلفت نظر الباحثين ورجال الدستور والقانون الدولي إلى مواهبه وإمكاناته ، وبعد أن سدد الهدف الأول في مرمى الأكاديميين وأولي الأمر تطرق بخفة ولباقة من حديث الدستور إلى حديث السياسات الفاشلة في نواحي مصر المحروسه.

تحدث عن خيبة أولي الأمر في إدارة الاقتصاد ، وعن العجز الاقتصادي ، وارتفاع مستوى الديون إلى حد غير آمن ، وانهيار العملة المحلية أمام الدولار ، والغلاء المتوحش. ثم تحدث عن الفساد الذي ينخر في عظام البلاد حيث الرشوة والمحسوبية وانعدام تكافؤ الفرص وإسناد الأمر إلى غير أهله والاعتماد على أهل الثقة رغم تواضع إمكاناتهم.

وتحدث عن الاستبداد الذي جَرَّف الحياة السياسية في مصر، وكيف أصبحت القرارات التي تحدد ملامح الحاضر والمستقبل في يد واحدة حيث لا مؤسسات حقيقية ، ولا فصل بين السلطات في هذا البلد.

فالبرلمان يبصم على كل ما تريده الحكومة ولا يمارس دوره الرقابي عليها. والإعلام سلطة خانعة ذليلة تتملق الحكام ليل نهار خوفاً على مصالح رجال الأعمال. ثم هوى بشدة على رؤوس المنافقين من الكتاب والصحفيين وسماهم المنبطحين حملة المباخر الخائنين لثقة الأمة فيهم.

ثم بدأ في الحديث عن التوريث في كل نواحي الحياة : في القضاء وفي الجامعة. وحينما همَّ أن يعلق على التوريث في الحكم قاطعته المذيعة ثم سألته السؤال التقليدي الذي يسأله المصريون جميعاً صباح مساء: "إلى أين نحن ذاهبون؟" فألقى بالقنبلة التي انفجرت في كل الأوساط الإعلامية والسياسية ؛ وهي نبوءته بأن مصر حبلى بحدث جلل وتعاني آلام المخاض.

ولما سألته المذيعة: ماذا تقصد؟، أجابها أن كل القرارات التاريخية والتجارب السابقة لكل الشعوب تفيد بأن الوضع الحالي لا يمكن أن يستمر هكذا فإما إصلاح جوهري شامل وانتخابات نزيهة وإصلاح دستوري وهيكلة الشرطة ودولة مؤسسات ، وإما ثورة جامحة وفوضى عارمة تقضي على الأخضر واليابس لأنه سيصاحبها اضطراب سياسي عنيف وانفلات أمني مرعب وانهيار كامل لهيبة الدولة.

وكأنما كان د. حمدي يقرأ كتاب المستقبل في مصر وكانت هذه إحدى علامات ودلائل العبقرية في شخصيته. قرأ الحاضر جيداً واستدعى

الماضي ليستخلص منه العبر والدروس فاستشرف المستقبل وتنبأ به بجدارة وبراعة.

كان حمدي يريد أن يدق أجراس الحكام. أراد أولاً أن يقول لهم "نحن هنا أيها الجهلة الذين تستعينون بعديمي الكفاءة وفاقدي الموهبة بينما هناك عباقرة موجودون ينتظرون أن تشركوهم معكم في مصائبكم التي لن تحل عليكم فقط وإنما ستحل على البلاد بأكملها".

في اليوم التالي كان حديث د. حمدي بالأمس محور كل النقاشات والجميع يسأل هل يعقل أن تحدث في مصر الخاملة النائمة هزة شعبية كالتي توقعها د. حمدي؟

كان هذا أبعد ما يكون عن التصور فمظاهرات حركة كفاية والسادس من إبريل وغيرها لم يكن بها إلا عشرات الأشخاص يجتمعون ويهربون بمجرد رؤية هراوات الأمن المركزي. وهل يمكن أن يسمح نظام جبار يملك كل أدوات البطش بهذا الزلزال الثوري؟

كان الجميع يميلون إلى تكذيب نبوءة د. حمدي والاستهزاء به. ولم يكف هاتف الدكتور حمدي عن الرنين من القنوات الفضائية وجرائد المعارضة ورجال الأحزاب وبعض السياسيين المخضرمين الذين لم يمانعوا في احتواء حمدي سواء لإسكاته إلى الأبد أو الاستفادة من فكره المتفرد في نبوغه.

صار حمدي بعد ذلك نجماً تليفزيونياً لامعاً بحضوره الطاغي وأسلوبه الساحر ، وأصبح ضيفاً ثابتاً في معظم المحطات الفضائية ، وانضم إلى صالونات كبار السياسيين والمثقفين يشاركهم آراءهم ولا ينتهي الحوار إلا بعد أن يكون قد صرعهم جميعاً بقوة حجته وغزير علمه وثقافته.

كان العاشقون المريدون من طلاب د. حمدي قد وضعوا أحاديث د. حمدي كلها على اليوتيوب. وكانوا يتبادلون مقاطع من أحاديثه على الموبايل وكانت المجموعة الملاحقة له تتيه على بقية الطلاب من الكليات الأخرى.

كان حمدي يمثل لهم صحوة الضمير لدى المثقف الأمين على مبادئه وأحلام وطنه ، وكان يمثل لهم الثائر الزعيم الذي يجاهر بقول الحق في وجه سلطان جائر ، وكان يمثل لهم رمزاً عالياً لكرامة العلم ومثلاً أعلى لكل الشباب الثائر.

***

في الظهيرة جاءه اتصال هام من رقم *(Private Number)*. كان المتصل هو اللواء (ماهر) من مباحث أمن الدولة ، وللحقيقة فقد كان هذا الاتصال متوقعاً عند حمدي وكان يتعجب من تأخرهم في استدعائه ، ولذلك جهز نفسه جيداً لهذا اللقاء.

اتصل بالفريق الطلابي الخاص به وجمعهم على عجل وطلب منهم أن ينشروا على مواقع التواصل الاجتماعي خبر اعتقال د.حمدي ، وطلب منهم أن يفتحوا صفحة جديدة على الفيس بوك عنوانها (كلنا مع د.حمدي) وأن يحشدوا لها الآلاف بأسرع وقت ممكن وطلب منهم أن ينشروا أن اعتقاله تم بعد تسجيله حواراً تليفزيونياً في قناة (الأمل) وأن قوات أمن الدولة اقتادته من أمام المحطة إلى السجن مباشرة ، ثم طلب منهم أن يجمعوا أكبر قدر من الطلاب لا يقل عددهم عن ألف طالب ويقفوا على الرصيف المقابل لأمن الدولة بعد وصول د.حمدي إليها ويرفعوا لافتات التأييد.

وصل الدكتور حمدي إلى المبنى الشهير ، وتم تفتيشه وسحب بطاقته وهاتفه المحمول ثم مر على البوابات الإلكترونية الواحدة تلو الأخرى ، ثم دخل من مكتب إلى مكتب ومن ضابط إلى ضابط أعلى رتبة ثم أدخلوه إلى الحجرة الملحقة بمكتب سيادة اللواء.

تعمد اللواء ماهر أن يتركه ساعتين قبل أن يسمح له بالدخول عليه ثم أمر بدخوله فدخل د.حمدي مرتعشاً مرتجفاً وألقى السلام فلم يرد عليه اللواء ماهر ، وتظاهر بالانشغال بالأوراق المكدسة فوق مكتبه ، وترك حمدي واقفاً تائهاً يتلفت إلى اليمين واليسار. ثم قرر حمدي أن يخطو خطوة جريئة تتسم بالتهور في مثل هذه الأوقات فسحب مقعداً قريباً منه وجلس بدون استئذان.

فطن اللواء لما فعله حمدي ولكنه تغاضى عن ذلك موثراً ألا ينهره أو يهينه في بداية اللقاء.
بادره اللواء ماهر فجأة وقال له:

- إيه الكلام الفارغ المكتوب على النت أننا قبضنا عليك منذ أيام؟
- ليست لي علاقة بما نشر وربما تطوع أحد الطلاب بفعل ذلك من تلقاء نفسه.
- وما هذه الصفحة ياسي حمدي عن "كلنا مع د.حمدي" ماذا يحدث لك حتى تطلب منهم ذلك الكلام الفارغ؟
- ليس لي علاقة بالصفحة وأصحابها أسماؤهم موجودة على الإنترنت.
- وما هذه الحشود الرابضة أسفل المبنى؟ ألا تعلم أنت وهؤلاء الأولاد أنني يمكنني أن أعتقلكم جميعاً الآن بموجب قانون الطوارئ، ولن يسمع بكم أحد بعدها ولن يذكركم مخلوق؟

- بأية تهمة يا سيادة اللواء نحن لم نرتكب إثماً أو فعلاً مجرماً.
- بتهمة التظاهر وإطلاق إشاعات كاذبة ونشر الفوضى والبلبلة والتجمهر أمام مبنى أمن الدولة ، ألا تكفيك هذه الجرائم؟ اسمع يا د. حمدي أنا لم أحضرك هنا لاعتقالك، ولو أردت ذلك ما منعني أحد وأنا أعلم جيداً أنك الذي رتبت الكلام المنشور على مواقع التواصل الاجتماعي، وأنك الذي أوعزت إلى هؤلاء الأولاد المغفلين أن يحضروا إلى هنا ، وأنا لم أفقد صبري معك حتى الآن ولو فقدت صبري ستتعرض لأهوال لا قبل لك بها. إن الكلام الفارغ الذي تدور به على المحطات الفضائية والذي شجعتك عليه المذيعة الحقيرة إياها سوف تدفع ثمنه كاملاً ليس الآن ولكن في التوقيت الذي أراه مناسباً.
أدرك حمدي أن الحوار سار في اتجاه لم يتوقعه أبداً ، فهو لم يَسْعَ يوماً لاستعداء السلطة. لم يكن ذلك في خياله حين كان يهاجمها. كان يقسو في النقد ليرتفع سعره عند التفاوض وها هي قد حانت أولى مراحل التفاوض.

اعتدل الدكتور حمدي في مقعده ووجه حديثه للواء ماهر:
- أرجو يا سيدي ألا تفهم أن نقدي للحكومة من معسكر المناوئين أو المعارضين ، أنا أقسو على الوزراء لأنهم يسيئون مرتين مرة للوطن ومرة أخرى للسيد الرئيس ، فالسيد الرئيس يتحمل أوزار هؤلاء الأعوان الفاشلين رغم أنه برئ من أفعالهم ومن سقطاتهم. إنني حين أهاجمهم أساهم في توجيه سهام النقد بعيداً عن سيادة الرئيس. إن النقد الجارح أحياناً لهؤلاء الحمقى يخدم النظام أمام الخارج

الذي يشيد بالروح الديمقراطية لدى النظام الحاكم. إن أخطر شئ على السيد الرئيس وعلى استقرار الحكم هو هؤلاء المنافقون الذين لفظهم المجتمع ولم يعد أحد يقرأ لهم أو يهتم بما يقولون. في حين أن الناس تصفق بحرارة لرئيس الديوان الجمهوري حينما يلهب بسياطه ظهر الحكومة في مجلس الشعب وهو لا يفعل ذلك إلا لدرء النقد عن السيد الرئيس وهكذا موقفي ، صدقني يا سيادة اللواء أنا أكثر الناس إخلاصاً للسيد الرئيس ولكن يحزنني أن يكون أعوانه ومستشاروه على هذه الدرجة من السوء.

كان كلام د.حمدي مقنعاً وظهر الارتياح والسرور على وجه الضابط الكبير وعلم أن د.حمدي يمكن احتواؤه بسهولة والاستفادة منه لصالح النظام.

ضحك اللواء ماهر وقال للدكتور حمدي:

- لقد أنسيتنى أن أطلب لك مشروباً، هل أفطرت؟
- شكراً.
- لابد.
- إذن، فنجان قهوة.
- إذن فلنتحدث بصراحة أيها الدكتور المحترم. ابدأ أولاً واصرف تلاميذك من هنا.

وبالفعل طلب الموبايل الخاص به فأعطاه إياه الضابط فاتصل بطلابه فانصرفوا على الفور وكان هذا باعث دهشة جديدة عند اللواء ، ثم تطرق الحديث إلى موضوعات مختلفة. وعاتبه اللواء على إثارة موضوع التوريث مع المذيعة سوزان البدري. ووعده حمدي بألا يكرر ذلك الخطأ مرة أخرى. وطلب حمدي من اللواء ماهر أن ينقل وجهة نظره إلى أولى الأمر قائلاً:

- سيادة اللواء أنا أريد صداقتهم لا عداوتهم.

ضحك اللواء وقال له:

- فهمت يا د.حمدي ماذا تريد.

وفي النهاية أعطى اللواء ماهر تليفونه الخاص لحمدي وطلب منه أن يتصل به في أي وقت بدون حرج أو تردد.

ظلت الرؤيا التي تقض مضاجع د. حمدي تعاوده بين الحين والآخر ، تفقده النوم ، ثم تفقده اتزانه في اليوم التالي ، وما بين الأرق والإرهاق والتوتر يظل د.حمدي أياماً بعد هذه الرؤيا الموحشة في عذاب مقيم.

ظن حمدي أن تغيير مكان النوم قد يساهم في طرد هذا الكابوس، وفي ليلة من الليالي التالية غير نظام يومه وليله بالكامل، لم يشرب خموراً في هذا اليوم، ولم يلق محاضرات، ولم يشغل باله بأي موضوع هام،

وظل يتفرج في التليفزيون على فيلم كوميدي، ولم يتناول طعام العشاء، ونام جالساً على أحد مقاعد الصالة.

ولكن محاولاته راحت أدراج الرياح وخابت توقعاته، فقد عاوده الحلم البشع في هذه الليلة، فقام من منامه بائساً حزيناً مكدوداً لا يقدر على شئ، طرأت له فكرة جديدة، لماذا لا يذهب إلى أحد أصدقائه ويفاتحه بالأمر ويأخذ منه الرشد والنصيحة؟ ولكن عاوده اعتزازه بنفسه، فكيف يظهر في حالة ضعف أمام الآخرين؟ ولم لا أذهب إلى من أثق في نقاء سريرته ومن يحفظ السر ومن لا يشمت بي في ضعفي؟ ومن يكون ذلك الرجل؟ ثم سرح بعيداً. وأخيراً اهتدى إليه إنه المهندس فوزي ذلك الزميل القديم الذي لم تغير السنون هدوءه وأدبه وتواضعه وكرمه وتدينه الشديد، مازال الزملاء يتحدثون عن وضاءة وجهه والنور الذي يغمره والحب الذي يشع منه لكل من يعرفه.

لم يكن مع د. حمدي رقم الهاتف الخاص بفوزي ولكنه يذكر عنوان سكنه، فلماذا لا يذهب إليه؟ وهل يذهب الكبار إلى الناس بدون موعد؟!

أوشك هذا الخاطر أن يثنيه عن الذهاب، ولكن آلام الليلة الفائتة لم تترك له مهرباً . ذهب حمدي إلى شقته و دق جرس الباب ، فخرج فوزي وتطلع إلى حمدي مندهشاً في ثوان معدودة ، ثم صاح به واحتضنه ورحب به بشدة وشكره على زيارته الجميلة ومفاجأته الرائعة.

دخل الإثنان فوزي و وراءه حمدي إلى شقة بسيطة متواضعة حوائطها باهتة وسجادها قديم منحول وأثاثها يشي بتعاقب السنين عليه ، واللوحات على الجدران كلها من آيات القرآن الكريم ثم صورة ملفتة لشيخ الأزهر الأسبق د.عبد الحليم محمود كبير المتصوفين في عصره.

مر الاثنان من الصالة إلى غرفة على اليمين هي حجرة المكتب الخاصة بفوزي. لمح حمدي أرضيتها كلها مغطاة بالموكيت ، ولاحظ أن فوزي خلع حذاءه ففعل مثله ، ثم التفت فوجد مكتبة ضخمة عملاقة تغطي أرفف الكتب جميع جدران الحجرة ، ودعاه فوزي إلى الجلوس أرضاً ، ووضع وراءه مساند الإسفنج وبجانبه على الناحيتين وسادات من الإسفنج مرتفعة لكي يتكئ عليها إن أراد.

لم يكن غريباً على حمدي كل ما لاحظه فهو يعلم أن فوزي أصبح من كبار المتصوفين في هذا البلد ، وكان حمدي يكرههم لانقيادهم الأعمى لكل حاكم ، واهتمامهم فقط بقشور الدين ، وحالة الذكر الفولكلوري الذي ينخرطون فيه جماعات يتراقصون إلى اليمين وإلى الشمال كالدراويش ، ثم تعلقهم بقبور الأولياء وآل البيت بطريقة مَرَضيَّة تترك لكارهيهم الشك في سلامة إيمانهم بل وربما الانزلاق العفوي للإشراك بالله لاتخاذهم هؤلاء الأولياء واسطة عند الله تعالى.

ولكن حمدي لم يلحظ شيئاً قليلاً أو كثيراً يثير نقده أو اعتراضه أو جدله. رأى شيخاً صالحاً محبوباً متواضعاً يمتلئ قلبه يحب أهل الأرض جميعاً ، ووجد حمدي أن لقاءهما فرصة مناسبة لدراسة طائفة عريضة من المصريين يُعَدُّون بالملايين من المتصوفة فبدأ حديثه باستدراج فوزي إلى الحديث عنهم.

سأله حمدي: ما سر انضمامك إلى هؤلاء المتصوفين؟ أراه شيئاً غريباً!

سأله فوزي: وما الغرابة في ذلك؟

حمدي: أنت رجل عاقل متزن لا أتصور أن أراك يوماً تتمايل مع هؤلاء الدراويش، لا اعتقد أن أراك يوماً هكذا.

فوزي: كل إنسان يذكر الله بالطريقة التي يحبها المهم أن يكون ذكره صادقاً خاشعاً خالصاً من التعلق بغرور الدنيا وقد ذكر القرآن الكريم الذاكرين قائلاً: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾.

حمدي: وماذا عن الأضرحة التي يذهب إليها العامة يسألونها إجابة الدعوات؟

فوزي: استغفر الله فالدعاء لله والأمل والرجاء عند الله والإجابة من الله سبحانه. ولكن بعض الناس يتخذونهم شفعاء عند الله ، أما زيارة آل البيت فتملأ النفس أنساً وصفاءً، هل من أحد لا

يجد سعادة في جوار سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي رضي الله عنه؟

حمدي: رضي الله عنهم جميعاً. ولكن ماذا عن التوحد بالله وسقوط التكاليف الشرعية من صوم وزكاة وصلاة عنكم؟

فوزي: هذه قلة مختلة عقلياً تلك التي تدعى سقوط التكاليف عنها، أتسقط التكاليف عن هؤلاء المغفلين وحبيب الرحمن صلي الله عليه و سلم كان يصلي طوال الليل حتى تتورم قدماه وتشفق عليه زوجه السيدة عائشة؟!

حمدي : وهل لبعضكم قدرات خارقة كما تَدَّعون؟

فوزي: لا أعرف أحداً امتلك مثل هذه القدرات أو الخوارق. ولكن الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده بما يشاء ، لقد أمر الله موسى بالسير أياماً طويلة حتى يصل إلى شخص عادي في نظر الناس وسماه الله "عبداً من عبادنا" وهو سيدنا الخضر لكي يتعلم منه فصاحبه موسى ورأى من علمه وأفعاله الأعاجيب.

كانت هذه فرصة لحمدي لكي يخترق هذا العالم الغامض (المتصوفة)، وكان يرى في انقيادها الأعمى للحكام شيئاً مقززاً، فلو حدث وظهر قائد استطاع أن يحسن توجيههم إلى الوجهة الصحيحة بعيداً عن هذا الهيام والذهول السابحين فيه إذن لرأينا من هذه الملايين ربما شأناً خطيراً في يوم من الأيام. كانت هذه الأحاديث مقدمة كافية لكي يستعيد كل منهما الأنس بالآخر.

ولكي يتمكن حمدي من الدخول إلى آلامه بدون هيبة أو خجل سأل حمدي فوزي:

- **يا باشمهندس إنني جئتك اليوم ألتمس النصح والمشورة في أمر هام يخصني وقد يكون عندك رأي يفيدني لأني أحمل هماً ثقيلاً.**

فوزي: أسأل يا سيدي ما تشاء وأنا رهن إشارتك.

حمدي: يعاودني بين الحين والآخر حلم أو قل رؤيا مفزعة لا أظنها أضغاث أحلام لأنها تتكرر بكل تفاصيلها مهما اختلفت حالتي الصحية أو النفسية أو الجسدية، وهذه الرؤيا تكاد تصيبني بالجنون لأنها رعب بالليل ومرض بالنهار، يصيبني منها الأرق والهلع ليلاً ثم يكون نتيجة ذلك الإجهاد والإرهاق وفقدان الشهية والعزوف عن كل شئ.

فوزي: وما هذه الرؤيا؟ إن كانت مخجلة فلا داعي لذكرها، لأنني أعلم أن بعض الأحلام لا يمكن سردها أو عرضها لانحطاط وتدني الأحداث فيها، فقد سأل سائل ذات مرة أنه يعاشر والدته في الحلم استغفر الله عافاني وعافاك وعافى الدنيا كلها.

حمدي: لا ليست مخجلة أبداً ولكنها مخيفة ومحزنة، ولا أفضل أن أتحدث في تفاصيلها لأن آلامها تكسر روحي وعظامي، فدعنا نتكلم في العموميات.

فوزي: وماذا تريد أن أبدأ فيه؟

حمدي: حدثني عن الأحلام وهل تتحقق فعلاً؟ وما مدلولها؟وهل تحقيقها - لا قدر الله - مرتبط بشروط محددة؟

فوزي: الأحلام هي تجول للروح بعيداً عن الجسد، وهي معجزة من معجزات الله تدحض أوهام الملحدين الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما يرونه فقط وأنه لا وجود للغيبيات، وأن العلم ضد الغيب رغم أن علمهم هذا كله غيب فهم لم يروا المغناطيسية أو الجاذبية أو موجات الأثير، ولكنهم رأوا آثارها كما نرى آثار حكمة الله في خلقه. وقد تتجول الروح فتسير آلاف الأميال، وتعود إليك بخبر أثناء منامك تتحقق تماماً عند اليقظة من صدقه وحقيقة حدوثه تماماً، وقد يرى بعض الناس غيباً في الماضي أو غيباً في الحاضر بعيداً عنهم أو غيباً في المستقبل يتحقق بالكامل.

حمدي: وهل لابد للأحلام أو الرؤى أن تتحقق؟

فوزي: بعض الرؤى تتحقق تماماً بدون زيادة أو نقصان وبعضها لا يتحقق، وفي سورة يوسف ثلاث رؤى تحققت حرفياً: هي رؤيا يوسف، ورؤيا الملك، ورؤيا الفتيْن اللذيْن صاحبا يوسف في السجن.

حمدي "ممنياً نفسه": أعتقد أن تحقق رؤيا سيدنا يوسف لأنه نبي من أنبياء الله.

فوزي: هذا غير صحيح، فقد تتحقق رؤيا المؤمن والكافر وعزيز مصر أيام يوسف عليه السلام لم يكن مؤمناً، والفتيان لم يكونا مؤمنيْن.

أخذ حمدي نفساً عميقاً وزفر زفرة عالية طويلة واشتد عليه الهم وسيطر عليه الكرب والغم وضاق صدره.

حمدي "ممنياً نفسه مرة أخرى": هل يمكن أن يكون ما أراه ليلاً ليس إلا تخاريف وأوهاماً، أو بعض الغازات المحتجزة في القولون ربما تفعل ذلك؟

فوزي: لا أظن ذلك يا د. حمدي فتكرارها كل مرة بنفس التفاصيل سنوات طويلة يوحى أنها ليست تهريجاً ولا هلوسة. والله تعالى أعلم بما كان وما يكون وما سيكون. ولكن يا صديقي أنصحك بزيارة طبيب نفسي فربما يكون لها علاقة ما بحالة نفسية أو حادثة في الصغر أو شئ في اللاوعي.

***

كانت زيارة حمدي لأحد الأطباء كابوساً ثقيلاً، فهو يكره الأطباء كراهية التحريم، كان يتمنى أن يكون طبيباً ولكن مجموعه الدراسي حال دون ذلك، إذ لم تتوقد موهبته وينفجر ينبوع ذكائه إلا بعد دخوله كلية الحقوق.

ورغم مرور عشرات السنين فحمدي لم ينس تفوق زملائه الذين صاروا أطباء عليه في سنوات الدراسة الثانوية وكيف كانوا يستهترون به ولا يقيمون له أثناء نقاشهم وزناً.

كان أهله يتمنون له أن يكون طبيباً مثل الأطباء المشاهير الذين يترددون عليهم للعلاج ، ولكنه خيب أملهم فعايروه بفلان وفلان فصمم في الجامعة على أن يصل إلى شأن لم يصل إليه أحد زملائه من الأطباء.

وكان الأول على الدفعة في السنة النهائية فعين معيداً، ثم تقدم للدراسات العليا بسرعة، وحصل على الدكتوراه في القانون الدستوري وهو حديث السن، ثم قرر أن يحصل على دكتوراه أخرى في القانون الدولي، حتى يتفوق على زملائه في الحقوق وزملاء الدراسة الأطباء.

وهداه تفكيره إلى طريقة مريرة للسخرية من زملائه القدامى الأطباء حالياً، كان أولهم الدكتور رشدي استشاري النساء والتوليد، فتواصل معه وتبادل معه الزيارات، وظل يحكي الأكاذيب عن صلته بأولي

الأمر، وكان له فعلاً بعض المعارف من الأكابر ولكنه بالغ في تصوير ذلك كثيراً، وعلم من طبيب النساء أن ابنه طبيب حديث التخرج وتم تكليفه الإجباري بمحافظة سوهاج وأن هذا شئ صعب على الابن وعلى الأسرة وعلى المستقبل العلمي للابن حيث سيبتعد عن الكلية التي ينوي التحضير للماجستير بها.

وعند هذه النقطة يبدأ حمدي في شرح قوة علاقته بوزير الصحة، وكيف كان وكيل أول الوزارة يجثو عند قدميه لكي يهتم حمدي بابنه في (الحقوق) حتى يتم تعيينه معيداً بالكلية، ويسترسل حمدي في الشرح ويعطي وعوداً خلابة لرشدي بانتهاء أزمة ابنه خلال أيام وكان رشدي يصدق ذلك فهذا النجم الإعلامي لابد له من معارف كثيرة، ويذهب رشدي إلى زوجته وابنه لكي يعلن لهما بشرى حل المشكلة خلال أيام، وينتظر رشدي اتصالاً من حمدي لا يأتي أبداً فيبدأ بالاتصال به فيخبره أنه لم يجد وقتاً لزيارة وزير الصحة لأن لديه رسائل دكتوراه عديدة لابد من مناقشتها، فيتصل به رشدي مرة أخرى فيقول له أن مؤسسة الرئاسة مشغولة بمشروع دستور جديد وقد كلفوه بذلك.

وطبعاً لم تحدث كل هذه الأعذار وربما لو أخلص حمدي لتمكن. ولكنه لا يسعى ولا يمل من الاستمتاع بضراعة رشدي وتوسله إليه، ثم تبدأ المرحلة الجديدة وهي عدم الرد نهائياً على رشدي وكانت أجمل أوقاته حينما يرى اسم ورقم رشدي على شاشة الموبايل والرنين يلح إلحاحاً متواصلاً لا يتوقف مترجماً قلق رشدي ولهفته . ويستمر

الرنين ويستمر الإهمال وعدم الرد حتى يصل رشدي بعد أيام طويلة من المحاولات إلى اليأس وعند ذلك يكون حمدي قد وصل لحالة النشوة الطاغية.

كانت طريقة مبتكرة في إذلال زملاء الدراسة يستدرجهم لطلب المساعدة ويشعرهم بأهميته في كل موقع وعند كل المسئولين ويتظاهر بالاهتمام، ثم يترك ضحيته معذباً بالأمل المخادع والشعور العميق بالهوان في آخر الأمر. مارس حمدي هذه الهواية مع كل زملائه من الأطباء ،وكل منهم لديه ما يشغله، فهذا يريد توظيف ابنه في الخارجية، وذلك زوجته تنتظر الترقية إلى أستاذ مساعد وآخر يبحث عن قرض كبير من البنوك وحمدي يعدهم جميعاً ويُمَنِّيهم ثم لا يَفِي بوعوده بل يستعذب آلامهم وضياع أحلامهم وهوانهم في الإلحاح عليه.

فعل ذلك كله مع كل زملائه الأطباء إلا طبيباً واحداً منهم استعصى عليه، وهو الدكتور محمد عبد الحليم عبد الله أشهر أطباء الباطنة وأكثرهم ثراء واعتزازاً بنفسه ، كان اسمه محمد عبد الحليم ولكن زملاءه لقبوه بالدكتور محمد عبد الحليم عبد الله لحبه الشديد للكاتب الكبير محمد عبد الحليم عبد الله ، كان مفتوناً به وبأسلوبه الرومانسي الساحر وعفته في الوصف وحيائه في التطرق إلى الأمور الخاصة بأبطاله حيث لا فحش ولا فجور، بل حياء من الكاتب العظيم كحياء العذراء في خدرها. كان د. محمد عبد الحليم طبيباً ناجحاً ومثقفاً بارعاً ومحدثاً لبقاً.

حاول حمدي التعامل معه وممارسة هوايته معه فلم تجد محاولاته نفعاً، وكيف يفلح ود. محمد ذو نفس عفيفة ومعارفه لا تعد ولا تحصى لنجاحه الطبي فكم من مرة عالج وجهاء المجتمع وأعضاء البرلمان . حاول حمدي مجادلته يوماً في شأن من شئون مصر فلم يجد إلا ثقافة موسوعية ولباقة بلا حدود وأدباً في المناقشة ومنطقاً يصرع الخصوم، لم يجد حمدي إلا الانكفاء على نفسه والانسحاب من حومة هذا الزميل السخيف كما أطلق عليه.

كانت أخبار نجاحات د. محمد عبد الحليم تصل إليه وكان هذا مصدر ضيق شديد له. علم أن الكشف الطبي عنده يحتاج إلى وقت طويل للحصول على موعد فقرر في لحظة جنون أن يذهب إلى العيادة الخاصة به ليرى بنفسه.

تسلل إلى السلم وقد غطى عينيه بنظارة شمسية سوداء لكي لا يعرفه أحد ودخل بين الزحام ليجد عيادة أنيقة جميلة وسكرتيرة حسناء أخبرته أن الحجز الأقرب بعد ثلاثة شهور ولمح سكرتيراً آخر وحارس أمن، والكل يتلهف على الدخول إلى الطبيب. رجع حمدي يومها مقهوراً ضائق الصدر ولعن الفكرة التي قادته إلى هذه المغامرة.

***

جلس د. حمدي في مكتبه مهموماً ضائق الصدر، يفكر كيف يستعين بأحد الأطباء النفسيين وهو لا يطيق رؤية البالطو الأبيض حتى في الأفلام السينمائية؟ ولكن تفاقم الحالة أوشك على تغيير رأيه، فلم يشفع له نومه على مقعد الأنتريه بالصالة، ولم تُجْدِ المهدئات، ولم تفلح كئوس الويسكي في تغيير شئ.

وبدأت قلة النوم تصيبه بشحوب أكثر وإجهاد أشد فعزم على زيارة الدكتور كمال منصور الطبيب النفسي الشهير. دخل د. حمدي عليه فعرفه د. كمال ووقف مرحباً تعلو وجهه ابتسامة مطمئنة وحياه بمودة صادقة وجلسا سوياً متجاورين على مقعدين في حجرة الكشف.

د. كمال: مرحباً بك يا دكتور حمدي بك حسين، هذه زيارة نشرف ونسعد بها.
د. حمدي: شكراً جزيلاً. قالها باقتضاب وعينين زائغتين.

د. كمال: كيف حالك وحال الجامعة وظروف البلد؟
كان يحاول أن يكسر حاجز الخوف والوجل والخزي الذي ينتاب معظم مرتادي العيادات النفسية.
د. حمدي: الحمد لله، البلد كما تراها. لاجديد. قالها وعيناه مثبتتان على لوحة أمامه.

د. كمال (محاولاً تشجيع د. حمدي على الحديث): شاءت إرادة الله أن يكون لكل إنسان في هذا الوجود مشكلة ما، قد تكون صحية أو مادية أو أسرية أو اجتماعية كل منا يعاني وهذه سنة الحياة . لا أحد يخلو من منغصات أنا مثلا...

قاطعه د. حمدي بحدة قائلاً:

- د. كمال سوف أريحك من عناء المقدمات، عندي مشكلة كبيرة ولا أعرف هل لها علاقة بالطب النفسي أم لا، وقد سألت أحد رجال الدين فطلب مني أن أستشير طبيباً نفسياً، ولكنني قبل أن ابدأ أرجو أن تَعِدَني أولاً أن حديثي بل زيارتي هذه لن يعلم بها أحد على وجه الأرض، لا أريد أن يعايرني خصومي بأنني مريض نفسياً.

د. كمال: أعِدُك تماماً يا حمدي بك فهذا واجبي المهني، وقد أقسمت على ذلك . ثم هو واجب أخلاقي تجاه ضميري وواجب ديني أمام الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

شعر د. حمدي بشئ من الراحة تسري في كيانه من حرارة الصدق ونبرة الإيمان في لهجة د. كمال.

بدأ حمدي: هناك وحش كاسر يتربص بي في منامي معظم الليالي منذ سنوات، وهذا الوحش ليس إلا حلماً مفزعاً يهد روحي ليلاً ويكسر عظامي نهاراً. أصبحت أكره النوم، فاشتد بي الإجهاد الذهني والنفسي وكرهت حجرتي وفراشي وجربت النوم

جالساً في الصالة واستعنت بالمهدئات وبالخمور وبالموسيقى وجلسات الاسترخاء قبل النوم كل ذلك لم ينفعني بشئ.

- وما هو هذا الحلم؟

- شئ فظيع.

وبرقت عيناه بغلالة رقيقة من الدموع ولاحظها د. كمال فتشاغل بتقديم المشروب لحمدي.

- في كل ليلة يأتيني شبح ضخم رهيب يمد أصابعه العملاقة نحو حلقي فيقبض روحي ويبتعد رويداً رويداً وهو ينظر إليّ، ثم يكتشف الأهل صباحاً إنني قد انتقلت إلى عالم الأموات، فلا يحزن أحد عليَّ ولا يبكي أحد، بل يجتمعون في الصالة واقفين ينظرون إليَّ كأن المتوفي هذا لا يعنيهم من قريب أو بعيد، ثم لا يتقدم أحد لعمل الغسل الشرعي، ثم يكفنوني على عجل، ولا يجدون عدداً كافياً لحمل النعش وليس هناك إلا أربعة أشخاص، هم أنفسهم في كل مرة، وأنظر خلفي فلا أجد أحداً من المشيعين. ويشعر حاملو النعش بالتعب فلا يجدون من يعاونهم أو يتبادل معهم هذا العمل الشاق، فيضعون النعش على الأرض بضع دقائق يلتقطون فيها أنفاسهم ثم يحملونه مرة أخرى، ثم يتركونه بعد فترة، ثم يحملونه حتى يصلوا إلى القبر وقد استبد بهم التعب والإرهاق، فيتركوني وحيداً. ولا يبقى معي إلا شخص واحد، أكاد أحفظ تفاصيل وجهه، ويظل يحاول منفرداً، وهو يبكي ويتلو آيات القرآن الكريم ، وأنا أتمنى أن أساعده في

مهمته فأتزحزح معه قليلاً ولكني لا أقدر، ومنظر الظلمة والوحدة داخل القبر يخيفني، ثم يحاول جاهداً أن يزحزح الجثة إلى الداخل، وأتمنى لو استطيع أن أقبل يديه لكيلا يتركني هكذا حتى لا تفتك بي الذئاب. وعند هذه الحالة من الرعب أقفز من منامي صارخاً مرعوباً وأنا لا أصدق أن كل ما حدث كان حلماً وانقضى.

ثم انخرط حمدي في بكاء مرير بصوت عال وهو الشخص الذي لم يَبْكِ يوماً في حياته.
قام د. كمال فاحتضنه كما يحتضن الوالد ابنه الباكي وظل يُقبِّل رأسه ويجفف دمعه ويضمه إليه ضمة الأم الحانية، ثم بدأ يهون عليه ويخفف عنه مدعياً أن هذا شئ هَيِّن وحله يسير ولا داعي للقلق.

شعر حمدي ببعض الراحة بعد أن أفرغ هذا المخزون الحارق من داخله كما يلفظ المسموم بعض سمومه بالقئ أو كما تفرغ الحامل من سفاح جنينها أثناء حركتها.

بدأ حمدى يهدأ رويداً رويداً ، ثم خاطب د.كمال:
- شغلتك وحَمَّلتك الهموم ولكن طيبة قلبك وحنانك خففت عني وواستني.
رد د. كمال: يا دكتور حمدي بك هذه مشكلة سهلة يسيرة وسوف ترى بعد ذلك صدق كلامي.

ففغر حمدي فاه مندهشاً: تقول مشكلة سهلة ولها حل أيضاً؟ ولن يعاودني هذا الكابوس مرة أخرى؟

رد كمال: هي كذلك فعلاً وسوف ترى بنفسك ولكنني لا أريد أن أبدأ معك اليوم أية نقاشات أو جلسات علاج، أريدك فقط أن تستريح اليوم وثق أن حديثك اليوم وبَوْحَك لأول مرة بما قلت جزء مهم من العلاج. وإن شاء الله لن تعاودك الحالة قريباً، ولكنني أفكر في أن تكون لقاءاتنا لقاءات أصدقاء بعيداً عن العيادة في مكان تفضله وتثق به وتستريح إليه، حتى أرفع عنك حرج التردد على العيادة أمام المرضى، وحتى يكون حديثك متدفقاً بلا حرج ولا إزعاج.

رد حمدي: هممت أن أطلب منك ذلك أيها الرجل الكريم ولكنني خجلت وخشيت أن أضيع وقتك أو أرْبك عملك مع مرضاك.

د. كمال: لا تقلق يا صديقي ، إذا سمحت لي أن أنسب لي شرف صداقتك.

د. حمدي: هذا شرف لي كبير. ولو قدر الله لي الشفاء على يديك فسوف يظل عنقي مطوقاً بصنيعك إلى الأبد.

د. كمال: سوف تعود كعادتك - لا أقول سوف تشفى - لأنك لست مريضاً وسوف تنام ملء جفونك وتمارس عملك بكل هدوء واسترخاء. ثق في قدرة الله ثم في إخلاصي.

د. حمدي: كل الثقة

د. كمال: إذن أين نتقابل ومتى؟
د. حمدي: هل يناسبك نادي الأطباء في طلخا، الأسبوع القادم مثلاً؟

د. كمال: يناسبني تماماً، ونحن على اتصال.
في تلك الليلة نام حمدي ملء جفونه كما لم ينم من قبل، فلم يَزُرْه هذا الكابوس الكريه، ونهض في الصباح الباكر مستريح البال منفرج الأسارير متورد الوجه يداعب كل من يقابله ونزل على عجل إلى الجامعة لكي يلتقي بأصدقائه وأحبائه من الطلاب.

***

obeikandl.com

كانت تلك أول زيارة للكلية بعد استدعاء أمن الدولة له، واستقبله الطلاب بالحفاوة والتصفيق، ثم صعدوا معاً إلى مكتبه ثم إلى المدرج، وسألوه عما دار في أمن الدولة، فذكر لهم أنه واجه الضابط الكبير بشجاعة وطلب منه ألا يتم استدعاؤه بعد ذلك إلا بإذن من النيابة العامة. وأنه هاجم الحكومة والنظام والرئيس وكل السياسات الفاشلة، وصَبَّ جام غضبه على المؤسسة الأمنية.

ذكر أن الضابط الكبير حاول استرضاءه والوصول معه إلى تهدئة وألمح له أن أولياء الأمر يفكرون في إسناد وزارة ما إليه ولكنه رفض بشدة، وسأله الطلاب هل رفضت منصب الوزير فعلاً؟ و أجابهم : كيف أقبل وزارة ضمن هذا النظام العفن الذي ينخر السوس في عظامه.

كانت هذه الروايات عن شجاعة أستاذهم ومثلهم الأعلى كفيلة بإشعال حماسهم وفخرهم. رأى الشباب النقي الطاهر - الذي لم تلوثه ألاعيب الساسة وفساد الحكام - رأوا مثلهم الأعلى وفياً لمبادئه ثابتاً كالجبل الشامخ على قيمه العليا التي يدعو لها.

كان الشباب قد ضاق ذرعاً بالمثقفين الذين يهاجمون الحكومة نهاراً ويبيتون في فراشها ليلاً. اشمئز الشباب من المثقفين الذين خانوا مبادئهم وآمال وطنهم لقاء ثمن بخس يجود به الحاكم عليهم. انفض الشباب عن الأحزاب الورقية التي لا تملك إلا الصحيفة والمقر وتتسول إعانة الدولة للأحزاب.

انتهت المحاضرة ككل مرة وصعدوا جميعاً إلى مكتبه وظل صامتاً منصتاً يسمع منهم كل ما يدور داخل الكلية وداخل الجامعة بل وخارج الجامعة في كل الشئون صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها.

وأثناء حديثه مع مريديه جاءه اتصال من أمين الحزب الوطني بالقاهرة يدعوه إلى حفلة عشاء خاصة جداً لصفوة القوم، ورحب حمدي بالدعوة ترحيباً شديداً وسأل عن موعدها ومكانها. وبالطبع لم يشعر أحد من الحاضرين بما دار في المحادثة.

ثم جاءه اتصال آخر كان آخر ما يتوقعه ، اتصال من "نشوى" التي كان آخر لقاء بها في الساحل الشمالي منذ ثلاثة شهور ودار فيها من العراك والسباب مثل ما يحدث في سوق السمك.

قرر حمدي ألا يرد عليها ثم ازداد الإلحاح فلم يرد أيضاً. ودارت في ذهنه الأسباب التي دفعتها للاتصال بعد هذه الفترة من القطيعة، وكانت اقرب الأسباب إلى ذهنه أنها ندمت على تصرفاتها وأنها تريد أن تعتذر وأن الشوق استبد بها وتريد أن تعيد المياه إلى مجاريها. وشعر بارتياح غريب لهذا الخاطر وشعر برغبة حقيقية في رؤيتها ووصالها. فإذا كانت تريد أن تعتذر وتبدي الندم فلم لا يسامحها وقد كانت تلح على خياله أحيانا كثيرة ، ولكن بصورة ممزوجة بالغضب والحزن والشعور بالانكسار والهوان بعد أن عايرته بسوء أدائه

وطعنته في رجولته. وليس أدعى إلى محو هذه الذكريات السيئة والمشاعر الغاضبة إلا الاعتذار البليغ من جانبها وبعدها تعود الفاتنة إلى أحضانه مرة أخرى.

ودق جرس الهاتف مرة ومرات ولكنه في المرات الأخير لم يرد لسبب مختلف وهو التدلل والتمنع عليها مثلما تفعل الغواني اللائي يتمنعن وهن الراغبات.

وبعد ذلك بدقيقتين تماماً جاءته رسالة منها: رد عليَّ حالاً فإن هناك أمراً خطيراً مفزعاً لابد أن تعلم به الآن...

تصور حمدي أنها أرادت استدراجه بإثارة مخاوفه وقرر تجاهل الرسالة أيضاً. وما هي إلا ساعة واحدة حتى كانت نشوى بشحمها ولحمها منتصبة أمامه ، رآها ذابلة ناحلة يهتز صدرها اضطراباً ويمتقع لونها خوفاً ، فأدرك أن في الأمر شيئاً خطيراً. فدعاها إلى الجلوس ، ورحب بها أمام الحضور كأن لم يرها منذ تخرجها أبداً ، ثم وجد ذكاؤه للموقف مخرجاً.

فقال: أكيد حضرتِ اليوم لكي تستأنفي الدراسات العليا. نِعْمَ القرار.
وبعد أن أنهى حديثه مع الطلاب بقيت هي بالطبع فأغلق الباب وقال لها:

- ما الخطب؟ وماذا دهاك؟ لماذا حضورك هكذا؟ تكلمي بسرعة .

قالت له بعد أن وقفت متحفزة كالنمرة المجروحة: أنا حامل منذ ثلاثة شهور.

رد باستهتار ووقاحة: ممن يا ترى؟
قالت: لعنك الله أيها الفاجر المختال المغرور، أبعد أن سَلَّمْتُ لك نفسي تتهمني في شرفي مع الآخرين؟

تجاهل حمدي هذه الشتائم والإهانات لأنه أدرك أن في الأمر مصائب جمة قادمة.

فسألها: وماذا تريدين مني؟
قالت: أنا في مصيبة وقد علمت والدتي بالأمر والمصائب سوف تَنْقضُّ على رأسي إن أخبرت أمي بقية أسرتي.

حمدي: وكيف عرفتْ والدتك؟
نشوى: عَرَفْتْ يا ذكي من تغير شكلي وانقطاع الطمث التي كانت تراقبه كل شهر بعدما لاحظت عزوفي عن الزواج من كل من تقدموا لخطبتي ، وحاصرتني بالعويل والصراخ ، وأجبرتني على الذهاب إلى معمل التحاليل الطبية ، فأردت أن أعطي لنفسي مهلة من الوقت، فقررت مسايرتها في الأمر وذهبت معها وقد عزمت على حيلة تنجيني مؤقتاً.

- وما هي؟
- كانت معلوماتي أنهم يشخصون الحمل في المعمل من تحليل البول ، فذهبت إلى دورة المياه ووضعت في الأنبوب بعض مياه الصنبور ، ولكنني فوجئت بأن فني المعمل يقول لنا أن التحليل الأكيد هو تحليل الدم ولا داعي للبول. ولم أكن في وضع يسمح لي بالانسحاب خوفاً من فضيحتي أمام موظفي و أطباء المعمل وأمام والدتي ، وكان في مخيلتي أن التحليل قد يكون سلبياً لأي سبب ، وظهر تحليل الدم بعد دقائق معدودة، وظهرت النتيجة إيجابية. فتمالكت أمي نفسها حتى خرجنا من المعمل، ثم انهارت على السلم فاقدة الوعي. ثم استفاقت بعد قليل بعد أن وضعت الماء الكثير حول وجهها ورأسها وأفهمت المحيطين بنا أنها نوبة إغماء تنتابها بين الحين والآخر. وحينما نزلنا أسفل العمارة ركبنا التاكسي صامتتين حتى عدنا إلى المنزل فظلت تلطم وجهها ووجهي وتبكي وتولول ثم انقضت فوقي و نشبت أسنانها في لحمي وأظافرها في رقبتي وهي تسألني عمن فعلها. ولم أستطع المقاومة طويلاً فصارحتها بالحقيقة فتمالكتْ نفسها واتخذتْ قرارها بسرعة وحزم وقالت: أمامكما أربع وعشرون ساعة إن لم يتقدم للزواج منك سوف أخبر والدك وإخوتك وساعتها لن تمر عليكما أربع وعشرون ساعة أخرى وربما يدفنون جثتيكما معاً في وقت واحد قبل هذا الموعد.

رد حمدي وقد تملكه ذعر حقيقي: وهل إذا صَدَّقتُ أنا كل ما ذكرتيه الآن هل تظنين أن هذه وسيلة محترمة لزواجنا؟

فصرخت في وجهه: افهم يا بني آدم نحن لا نتحدث عن الاحترام والاحتقار أيها الذكي الألمعى. نحن في مصيبة لابد أن نحسن التدبر فيها وإلا فالعاقبة أبشع مما تتصور.

فنظر إليها ملياً ثم قال: إذن اتركيني أدبر أمري وأفكر على مهل.
قالت له: بما لا يتجاوز ساعات معدودة. وإذا أردت في هذه الساعات أن تعرضني على طبيب النساء والتوليد أو طبيب الأشعة لكي يريك الجنين على السونار فأنا معك وإذا أردت أية تحاليل فأنا معك.

فغمغم في نفسه قائلاً: قد يكون هناك جنين ولكن من يدري أنه مني؟ أدركت ما يدور بخاطره بذكائها المعهود، فقالت له:

وإذا أردت التأكد من نسب الطفل لك فيمكن أن تحضر لخطبتي من أهلي وبعدها يكون أمامنا بضعة أيام تحلل فيها DNA للجنين لكي تتأكد من نسبه لك.

حمدي: وكيف تحلل للجنين وهو في بطنك؟

ردت: ألا تعلم أيها المثقف العبقري أنهم يجرون عمليات جراحية للأجِنَّة في أرحام أمهاتهم حالياً، ثم يتركون الأجنة تكمل فترة الحمل بعد ذلك حتى موعد الولادة؟

قلّب حمدي الأمر بسرعة في ذهنه ووجد كلامها منطقياً ومرتباً ولكنه رغم ذلك عاود اللجاج والمجادلة فقال لها:

- ولكن يا حبيبتي لماذا لا تجهضين هذا الجنين ثم أتقدم لك بعد ذلك بهدوء وبدون توتر أو انفعال.

أدركت أنها حيلة حقيرة منه فقالت:

- صدقني لقد حاولت ذلك ولكن الطبيب الذي أرشَدْتني إليه صديقة لي وهرعتُ إليه فوجدتُه قد ألقِي القبض عليه وأغْلِقتْ عيادته لشهرته في عمليات الإجهاض.

عند ذلك انفرجت أساريره فقد شعر أنها فتحت له باباً للنجاة ولإغلاق الملف بالكامل.

فسألها: وما رأيك أن اذهب بك أنا إلى طبيب يُرشِّحه لي أحد معارفي أو أصدقائي وننتهي من هذه المصيبة الآن ونفكر سوياً على مهل في مسألة الزواج؟

فصرخت فيه ودقت بقبضة يدها على مكتبه قائلة:

- كان هذا ممكناً قبل أن تفاجئني أمي وتعرف كل شئ أما الآن فهذا في نظرها ونظر بقية أهلي إن علموا عار لا يمحوه

إلا زواجك مني ومداواة الأمر أو نلقى مصيرنا المحتوم سوياً فانظر ماذا ترى واخترْ ما تشاء.

رجع بكرسيه إلى الوراء وأسند ظهره الذي لم يعد يحتمل مزيداً من الضربات وسحب نفساً عميقاً قبل أن يقول في استكانة وخضوع وقهر:

- اطمئني سوف أتدارك الأمر.

ردت عليه بإيجاز وحزم: ليس أمامك إلا ساعات أكرر ساعات وسوف أترك التليفون بجواري دائماً في انتظار جملة واحدة منك: أنا في الطريق إليكِ الآن.

***

انصرفت نشوى وتركت حمدي لأهواله. ظل يدور في المكتب ذهاباً وإياباً ويقلب الأمر على كل وجوهه فلا يجد له مخرجاً. هل يذهب إلى خطبتها لكى يعطي لنفسه بعض الوقت ثم ينقض الخِطْبَة كما يفعل الكثيرون؟ فوجد أن هذا حل ساذج لأنه يحل المشكلة إذا لم يكن هناك حمل سِفَاح، أما في وجود هذه المصيبة فلا يعدو هذا الحل إلا تأجيلاً عبيطاً وساذجاً للمشكلة لبعض الوقت وبعدها تنتفخ بطنها ويعلم القاصي والداني بحقيقة المصيبة وسيكون هذا مدعاة للانتقام منه أكثر من ذي قبل.

فكر في السفر للخارج ويتركها تحل مشاكلها بنفسها وعند ذلك سوف تحملها أمها بنفسها إلى إحدى القابلات لكي تقوم بإجهاضها. فكر ثم سأل نفسه كيف يطلب السفر من الجامعة الآن؟ وإلى أين ولم يرتب عملاً ولا سكناً ولا تأشيرة؟ ثم كيف يترك أحلامه في مصر باعتلاء سُلَّم المجد الذي يشيد فيه منذ سنوات؟

لاحظ في نفسه أنه لم يفكر في مصيرها أو احتمال الخطر عليها إذا ذهبت إلى "داية" ربما يكون في زيارتها نهاية لها. لم يشعر بشئ من الانزعاج على فتاة تمددت في أحضانه عشرات المرات، وسمع منها أجمل قصائد الثناء والغزل والمداعبة ، وتناول من عمل يديها الكثير من الطعام وشرب من رضابها الكثير، ولكنه لم يلتفت إلى هذا الخاطر كثيراً وهرب منه.

وفجأة هطل عليه خاطر وجد فيه الحل الذي يبحث عنه لكل مشاكله. تذكر اللواء ماهر لواء أمن الدولة الذي أعطاه الرقم الخاص به ، وعرض عليه الاتصال به في أي وقت. لماذا لا أذهب إليه وأصارحه ثم أطلب منه الحماية وأكيد سيتكفلون بحمايتي وهم قادرون عليها.

استراح جداً لهذا الخاطر ولكنه شعر بشئ من الخجل أن يحكي القصة بحقارتها، ثم استدرك مخاطباً نفسه: لندع مثل هذه الشكليات قليلاً فلكل الناس هفوات ولكل جواد كبوة. هل أسْقُطُ من نظره فيتقاعس عن تزكيتي عند أولي الأمر؟ لا، كلهم زناة عصاة كاذبون سارقون أفاقون، فماذا يشينني إذا انضم إلى فريقهم لاعب جديد؟ ثم فكر: ولكنهم رغم حقارتهم يريدون وجهاً مضيئاً أمام الرأي العام يحوز ثقة الناس وحب الشباب. لن يعلم أحد من تلاميذي أو أصدقائي شيئاً، ستظل الأمور طيَّ الكتمان بيني وبين اللواء ماهر، إذن فلنتصل به الآن.

اتصل باللواء ماهر الذي رحب به وطلب منه د.حمدي أن يشرب القهوة معه فدعاه بسرور.
ركب حمدي سيارته وأوعز إلى السائق أن يسرع إلى مبنى أمن الدولة ووجد كل الضباط يعرفون انتظار اللواء ماهر له فأفسحوا له الطريق بدون مضايقات.

كان اللواء ماهر يتوقع أن يأتي له د.حمدي بأخبار سياسية أو معلومات هامة عن المشاغبات والمظاهرات التي تتحرك أحياناً في الجامعة، بدأ الحديث عن الأحوال العامة والصحة والأولاد.
ثم بدأه حمدي متلعثماً: أنا في مشكلة وأطمع أن تساعدني فيها.

اللواء ماهر: أية مشكلة؟ خيراً!
حمدي: هناك أناس يتربصون بي لخلافات قديمة في قريتنا بسبب نزاع قديم على أراض زراعية في القرية ولم يحصلوا على ما يريدون بحكم القضاء فقرروا الانتقام مني.

فرد اللواء: ولكنني لا أعلم أن لك مشكلات في قريتك فأنت لم تنزل إلى زيارتهم منذ سنوات.
صُعق حمدي من الرد وصمت برهة، ثم قال له حمدي: خلافات قديمة تجددت حالياً.

سأله اللواء: ولماذا ينتقمون منك أنت ، وأخوتك عندهم في البلدة؟
رد حمدي: لأن أرضي بجوارهم وليست أرض أخوتي.

سأله اللواء: وهل قسمتم الأرض ووالدك مازال على قيد الحياة؟
صعق حمدي للمرة الثانية وجف حلقه وتلعثمت الحروف في فمه فقال:

- هذا هو الذي بلغني أنهم يريدونني أنا شخصياً.

فسأله اللواء ماهر: وما اسم الشخص الذي يتربص بك؟

قال حمدي: إبراهيم مصطفى العشري وأولاده.
فضحك اللواء طويلاً واستغرق في نوبة حادة من القهقهة، وظل يضرب كفاً بكف ويشهق من شدة الضحك، ويضرب على المكتب من شدة الانفعال، وحمدي أمامه في ذهول تدور الدنيا برأسه.

وبين نوبات الضحك باغته اللواء فجأة: أليس هذا والد نشوى؟
بهت حمدي مرة ثالثة ولم يرد ونظر إلى الأرض أسفل قدميه وقد تضاءلت نفسه حتى أوشكت على التلاشي من الوجود ثم هدأت نوبة الضحك عند اللواء وظل مبتسماً وقال لحمدي:
- ألم نتفق يا دكتور على الصراحة من قبل؟

اعتدل الضابط الكبير وطلب مشروباً آخر وقال لحمدي:
- ماذا حدث حتى تصل الأمور إلى ما وصلت إليه؟
رد حمدي ووجهه مازال إلى الأرض ورأسه مطاطئ كما هو قائلاً:
- حَمَلتْ مني وتريد الزواج فوراً وإلا قتلها أهلها وقتلوني معها هكذا توعدتها أمها.
-
رد اللواء ماهر: أستطيع أن أوفر لك الحماية الكاملة طوال ٢٤ ساعة لمدة أسبوع أو شهر أو شهرين ولكن لا أستطيع أن أحميك إلى الأبد.
حمدي: ماذا تقصد؟

اللواء: أقصد أنهم سيعلمون من والدتها بكل تأكيد لكي يساعدوها على تجاوز هذه المصيبة وأنا أعلم أن لهم جذوراً صعيدية، وعندئذ لا أستبعد أن يتهور أحدهم ويقوم بقتلها وبعدها سيشعرون بأنهم لم يأخذوا ثأرهم منك وأنت في نظرهم رأس الأفعى، وربما تتزايد أحزانهم على ابنتهم كلما تذكروها ورأوك في حماية الداخلية تستمتع بحياتك كما تريد. لن تهدأ ثائرتهم يا دكتور ولن ينسوا ثأرهم أبداً وستظل نار الثأر مشتعلة متجددة مهما طال الزمن.

- **ما الحل في نظر سيادتكم؟**
- **لماذا لا تتزوجها؟**
-
- **لست مستعداً للزواج حالياً بهذه الطريقة ولست مهيأ نفسياً واشعر أن الأمر فيه إكراه ومذلة.**
- **البنت في مصيبة يا دكتور حمدي وأنت في خطر عظيم ولا أرى محلاً للإعراب فيما تقول.**

ثم وقف الضابط ومد يده إلى حمدي إيذاناً له بالانصراف.
خرج حمدي يُقلّب الأمور مرة أخرى ولما اشتد شعوره بالخوف والخطر واسى نفسه قائلاً:

- **مازال أمامي بعض الساعات أتدبر فيها أمري.**

لم ينس حمدي موعده مع علية القوم في المساء، ذهب في الموعد المحدد وبعد التفتيش الشخصي والبوابات الإلكترونية وسحب الموبايل ، دخل إلى قاعة فخمة عملاقة في أرقى فنادق القاهرة. هذه قاعة لا تفتح إلا لأكابر القوم وصفوة المجتمع. النجف الكريستال العملاق والأنوار المضيئة من كل مكان والديكورات التي تخلب الأنظار واللوحات الأصلية لكبار الفنانين المصريين والأجانب ، وكل موظفي الفندق يعملون هذه الليلة في خدمة هذه القاعة ومن فيها وحينما دخل استقبله أمين الحزب الوطني بالقاهرة وقدمه لبعض الساسة والوزراء.

ظل حمدي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى وأخيراً جلس في أقرب مكان خال وأخذ يتطلع إلى وجوه الحاضرين جميعاً.
رأي في هذا الحشد أكبر رجال الأعمال البارزين، وانتحى أحد أكبر المقاولين فيهم بوزير الإسكان وظلا يتهامسان. واتضح بعد فوات الأوان أن أراضي الدولة كانت تسلم لأصحاب شركات المعمار مجاملة وتبادل منافع.

ثم لاحظ دخول كبير الكتاب المعارضين الذي افتضح أمره بعد خناقة كبيرة على صفحات الصحف بينه وبين رئيس تحرير جريدة مستقلة وذاع خبر تخرجهما بمرتبة الشرف من لجنة السياسات.
ثم دخل رئيس الحزب اليساري الذي كان يقبل الأيدي لرئيس الدولة ويدافع عنه باستماتة من أجل التعيين في مجلس الشورى.

ثم دخل وزير الثقافة الذي نجح في تدجين أغلب كبار المثقفين وإدخالهم إلى حظيرة النظام ، وكان هذا تعبيره المفضل لديه عن المثقفين. وكان أكبر إنجاز له هو نجاحه في إدخال أكبر المعارضين اليساريين في السبعينات إلى جوفة المداحين وحملة المباخر بعد أن اسند له منصب رئيس تحرير صحيفة حكومية لا يقرؤها الذين يطبعونها.

ثم دخل الصحفي اللامع صاحب الأسلوب الخلاب والذي صال وجال بصوته الرخيم إبّان غرق العبارة السلام (٩٨) وينسب له القول الشهير "أن المصري هو الإنسان الوحيد الذي ضَنَّ عليه وطنه بسكن ثم ضَنُّ عليه بقبر"، كان ذلك بمناسبة التهام الحيتان لأجساد المصريين في البحر الأحمر، وتم إسناد أحد إصدارات الأهرام إليه وصار بعد ذلك خاتماً في إصبع النظام.

وانتحى رجل أعمال برئيس تحرير جريدة معارضة يتفق معه على بيع الجريدة له ومشاركته في فضائية جديدة يكون هو النجم الأول فيها.
وأثناء تناول الطعام نادي أحد الوزراء على وزير الاقتصاد، وسأله (فين الفوسفور يا عمنا) وضج الحاضرون بالضحك. إذ تصور وزير الاقتصاد أنه يحدثه عن الفوسفور في الطعام الذي كان معظمه مأكولات بحرية غنية بالفوسفور بينما كان الوزير يعايره باللوحات المعدنية الجديدة التي ادعى أنها لوحات فوسفورية واتضح أنها ليست كذلك. وكان حضور المشاهير من مهيجي الفضائيات كثيفاً جاءوا لينالوا شرف الرضا من أولي الأمر.

ولم يكن غريباً وجود بعض رجال الدين المتفرنجين ، الذين يلبسون العمة والقفطان أحياناً ، ويلبسون البدلة الإفرنجية أحياناً أخرى ، ولكنهم في الحالتين يثنون على النظام وعلى تطبيقه للشريعة وخوفه من الله وشدة تقواه.

وكانت دهشته عظيمة عندما رأى بعض رجال منظمات حقوق الإنسان. كان الكل منهمكاً في إنهاء صفقاته والحصول على الموافقات اللازمة من الوزراء المسئولين. وضحك الجميع عندما لاحظوا أن كاتباً كبيراً كان بيده كشفاً طويلاً بأسماء الطلاب الذين يطلب من وزير الداخلية قبولهم في كلية الشرطة جميعاً.

كان الجميع سعيداً والضحكات والقفشات تهز رءوس الحاضرين وتجعلهم يتمايلون من الطرب والسعادة ونجاح الصفقات.

قرر حمدي ألا تضيع فرصته في نيل جزء كبير من الكعكة. ولكن عينه لم تكن على الأراضي أو استثناءات القبول أو فيلات المقاولين. كانت عينه مُصَوَّبة كما كان يحلم دائماً بمنصب وزير من الوزارات السيادية ، كان حلمه منذ صباه ومازال الحلم يكبر معه يوماً بعد يوم. أما المصريون المطحونون فلا يشعر بهم أحد ولا يهتم بمعاناتهم أحد. كان الفساد قد ضرب جذور الدولة، وكانت مصر في هذا الاجتماع التاريخي أشبه ما تكون بجثة معلقة من السقف بين النجف العملاق والكل يدور حولها يقتطع جزءاً من جسدها ويلتهمه بسرعة ثم يدور

مع الدائرين مرة أخرى ليقتطع قطعة ثانية وثالثة ، كما يقولون بوفيه مفتوح (أوبن بوفيه
) ولكن على جثة مصر المغدورة.

لم يعر حمدي إنذار الأربع وعشرين ساعة أي اهتمام منذ خرج من لقائه مع علية القوم وصفوة المجتمع. أصابه شعور عارم بالثقة بالنفس وتضخمت ذاته وأصبح دون وعي يفكر بعقلية من ينتمي إلى أعلى السلم الاجتماعي.

ولم تكن تسمح له هذه النشوة بأن يفكر في التهديد الذي توعده به بعض الدهماء والرعاع، وكيف يفكر وهو خارج من صحبة الذين يقبضون على أنفاس البلد بالحديد والنار ولا يهمهم إن ذهب الأمن بنصف سكان مصر إلى السجون والمعتقلات ، حَدَّث نفسه أنه أصبح واحداً منهم وقريباً يتم تنصيبه رسمياً في أعلى المناصب بينهم طبقاً للخطة التي وضعها وأحكم تنفيذها وها هي بدأت تؤتي أُكُلَهَا وتلقى ببعض ثمارها.

هل يخشى صديق الأسود من الفئران؟ هل يخشى الصاروخ الدستوري الصاعد من تهديد بعض المهمشين والمسحوقين؟
ولكنه تحسب للأمر بعض الشئ فقرر أن يختفي بضعة أيام بعيداً عن الجامعة وعن الأماكن العامة التي يرتادها وأن يجعل تحركاته في أضيق نطاق.

مرت الأربع وعشرون ساعة ولم يتصل بنشوى فحاولت الاتصال به فوجدت أن هاتفه مغلق، وكانت والدتها معها في جحيم من الانتظار، وحينما اكتشفا أن هاتفه مغلق أيقنتا أنه لن يفي بوعده ولن يحضر، وربما طرح الموضوع من رأسه تماماً، وصرف النظر عن المصيبة التي ألمَّت بهذه الأسرة.

وفي الصباح أرسلت الأم "نشوى" إلى خالتها في دمياط ، ثم انتظرت حتى استيقظ زوجها وأولادها من النوم وأعدت لهم الطعام ولما همُّوا بالانصراف استبقتهم جميعاً ثم صارحتهم بحقيقة المصيبة التي حلت بشرفهم. وكانت المصيبة فوق كل احتمال وخرج الجميع عن حدود التفكير العاقل وسحب كل منهم سلاحه وأقسموا جهد أيمانهم أن يدفنوا نشوى وحمدي هذا اليوم قبل حلول المساء.

ثم راح الأب يلقى اللعنات والشتائم المهينة إلى زوجته لأنها لم تفكر في مراقبة ابنتها أو تحسن تربيتها أو تتحرى حقيقة الأمر إزاء رفضها كل الشباب الذين تقدموا لطلب يدها.

وحاولت الأم الدفاع عن نفسها ولكن زوجها لطمها على خدها فارتمت باكية في ركن من الغرفة ، وصاح الإخوة جميعاً بعد أن اكتشفوا أن البنت ليست في المنزل واتجهوا إلى أمهم يمسكون بتلابيبها ويسألونها عن البنت ورفضت الأم رغم كل الإهانات والشتائم وتطاول أبنائها عليها أن تخبرهم بمكانها ، وبين صياحها وبكائها طلبت منهم أن ينتقموا أولاً ممن كان السبب وبعد ذلك يأتي

دور البنت. ورأى الجميع أن هذا عين الصواب فالبنت لن تفلت منهم ولكن المهم الآن أن يظفروا بحمدي أولاً لأن هذه هي المهمة الأصعب ولابد من البحث عنه واصطياده بعيداً عن الأعين.

ثم تحركوا بسيارتين كل منهم في اتجاه مختلف بعضهم ذهب إلى الجامعة وبعضهم ذهب إلى منزل حمدي، ثم دخلوا بهدوء يسألون عنه في الجامعة فعلموا أنه لم يحضر وقدم أجازة لمدة أسبوع من العمل، وسألوا عنه الجيران فقالوا لهم أنهم لم يروه منذ ٢٤ ساعة. انقسم الفريقان: بعضهم يراقب المنزل خلسة من مكان بعيد ، وبعضهم ذهب إلى الساحل الشمالي بحثاً عنه.

واستمرت رحلة البحث عنه ثلاث ليال وأربعة أيام حتى ظفروا به خارجاً متخفياً من منزله وتحركوا خلفه دون أن يدري، وركب سيارته يقودها السائق وهو غاطس في الكرسي الخلفي لا يراه أحد، وتحركت السيارة على طريق المنصورة القاهرة، وتحركت السيارتان واحدة أمامه والأخرى خلفه والاتصالات التليفونية بينهم مستمرة حتى لا يتمكن حمدي من الإفلات منهم قبل أن يظفروا به. وفي منتصف المسافة بين المنصورة ومدينة أجا اقتربت منه السيارة الخلفية تماماً وأبطأت السيارة الأمامية حتى ضيقا عليه الخناق وأجبرا السائق على التوقف ، ونزل من السيارتين أربعة رجال مدججين بالأسلحة الآلية والمطاوي والسنج وأسرع أحدهم فسحب السائق من مكانه ولكمه في وجهه وضربه على رأسه ثم سحبه إلى إحدى السيارتين.

ودخل الثلاثة إلى حمدي جلس أحدهم عن يمينه وأحدهم عن شماله والثالث أمام مقود السيارة. ظن حمدي أنهم لصوص يريدون سرقة السيارة فخاطبهم مذعوراً: خذوا السيارة وخذوا كل ما معي من نقود. لكمه أحدهم في وجهة بمؤخرة السلاح الآلي فتهشم أنفه واندفع الدم غزيراً على ملابسه ، فصاح حمدي وهو يقبل يَدَيْ الذي يجلس على يساره: إذن أنتم لا تريدون السيارة ، أسألكم سؤالاً واحداً ، هل أنتم إخوة نشوى؟ فردوا عليه بسيل من اللكمات والشتائم المقزعة: (أيوة يابن الكلب يا قذر).

فرد حمدى والدموع تهطل من عينيه: و هل يفعل أحد ذلك بزوج أختهم؟ لقد كنت قادماً إليكم الليلة و لقد اشتريتُ أمس الشبكة ، وكنت أريد أن أجعلها مفاجأة لها. هيا بنا إلى منزلي، وسوف أريكم الشبكة التي اشتريتها أمس، وقد اتفقت معها بعلم والدتها أنني سأتقدم إليها في غضون يومين أو ثلاثة ولكنني كنت مريضاً جداً بالأمس. تستطيعون أن تقتلوني الآن. ولكن هل هذا سيحل مشكلة نشوى؟ ولو قتلتموني الآن فلابد أنكم ستقتلون نشوى من بعدي، هل هذا حل يفعله العقلاء؟ هل بدلاً من أن تحتفلوا معي وبأختكم بزفافنا تحتفلون بقتلنا؟! صدقوني أنا مستعد لإعطائكم كل الضمانات التي تؤكد لكم صدق كلامي، وأنا معكم إلى أي مكان تريدون أن اذهب معكم إليه، ويمكن أن نذهب ونأخذ نشوى الليلة ونتوجه إلى أي مأذون الآن وفوراً. أرجو أن تحسنوا التفكير والتدبير، إن كنت أخطأت مع نشوى فكل ابن آدم خطاء وخير

الخطائين التوابون وأنا تُبْتُ إلى الله، وهي تابت أيضاً وتعاهدنا على الزواج. كل ما في الأمر أنني تأخرت عن الموعد الذي اتفقت مع الحاجة والدتكم عليه لسبب خارج عن إرادتي وهو المرض الذي ألمَّ بي بالأمس ورغم ذلك اشتريت لها الشبكة. هيا بنا الآن إلى نشوى ندخل السرور على قلبها ونعقد القران الليلة وآخذها إلى شقتها الآن وفوراً.

كان حمدي يتحدث باندفاع ولباقة وصِدْق جعل الإخوة يُقلِّبون الأمر في رءوسهم جميعاً، وبدا لهم هذا الحل أفضل من قتل أختهم وطالما أن أمر حملها لا يزال في طي الكتمان فليس هناك عار عليهم أمام أحد، ونظر الجميع إلى عيون بعضهم وتفرس كل واحد منهم ملامح أخيه. وهنا تدخل والدهم حاسماً الأمر قائلا: أخْرج دفتر الشيكات يا حمدي. فأخرجه حمدي سريعاً، وطلب منه الأب أن يوقع على شيك بمبلغ خمسة ملايين جنيه فوقَّع حمدي على الفور وأخذ الشيك ووضعه في جيبه. ثم خاطب حمدي في هدوء بعد أن هدأت ثائرتهم: سوف تذهب إلى الشهر العقاري غداً - أكرر غداً يا حمدي - وتكتب عقد بيع الفيلا التي تمتلكها في الساحل الشمالي وتوثقه في الشهر العقاري، ثم تحضر غداً ومعك عقد البيع الموثق، وسوف يكون المأذون موجوداً غداً الساعة الثامنة مساءً وإذا لم تحضر فأنت تعلم ما سيحدث لك. لقد أعطيناك فرصة أخيرة لم تكن ضمن ما ننوي فعله ولكنك كُتِبَ لك عمر جديد. حينما تحضر ويكون معك العقد المسجل سوف أعطيك الشيك بعد عقد القران مباشرة.

ظل حمدي يردد: حاضر ... حاضر قبل الساعة الثامنة، سأكون عندكم في السابعة.

وهمَّ الجميع بالنزول من السيارة مهددين: إياك أن يلعب في رأسك محامٍ مغفل ويفهمك أنك تستطيع الطعن على الشيك فساعتها سوف يكون القتل هو الحل الوحيد لأمثالك.

وعندما نزلوا من السيارة نزل حمدي ومد يده ليسلم عليهم وسألهم إن كان يحق له أن يطلب منهم شيئاً فأجابوه بالإيجاب فقال: يمكنني أن أعطي لنشوى المهر الذي تطلبه بل أضعاف المهور التي قدمت لزميلاتها ولا داعي لحكاية فيلا الساحل الشمالي لأن أولادي مرتبطون بها بشدة فردوا جميعاً: لا يمكن طبعاً يا أفندي. هذه الفيلا هي التي شهدت اعتداءك على شرفنا أيها الحقير أما أولادك فاذهب بهم إلى الجحيم.

عاد السائق إلى سيارة حمدي مذهولاً وآثر الضرب على رأسه مازال مؤلماً بشدة فسأل حمدي متعجباً: من هؤلاء يا دكتور حمدي بك؟ وماذا كانوا يريدون؟ ولماذا اعتدوا علينا ثم تركونا؟
رد حمدي عليه بأن هؤلاء مجموعة من البلطجية وقطاع الطرق وكانوا يريدون سرقة السيارة أعطيتهم كل ما معي فذهبوا.
- ولماذا ضربوك إذن يا د. حمدي طالما وافقت على طلباتهم؟
رد عليه: حاولت مقاومتهم في بداية الأمر ولكن دون جدوى فهم مسلحون كما رأيت.

قال له السائق: إذن علينا التوجه حالاً إلى أقرب قسم شرطة لكي نحرر محضراً ونطلب توقيع الكشف الطبي علينا. فسوف يقعون في أيدي الشرطة قريباً طالما أنهم معتادو إجرام. وأنا أستطيع التعرف عليهم.

رد عليه حمدي: لا داعي لذلك الليلة وسوف أتولى الأمر صباحاً مع أصدقائي من رجال الشرطة. فقط عليك أن تأخذ أجازة غداً لكي تستريح.

وعندما وصلت السيارة إلى المنزل أخذ مفتاح السيارة من السائق وأعطاه مبلغاً من المال وصعد إلى الشقة وحمد الله أن الكل نائمون وغسل وجهه وارتدى البيجامة وذهب إلى فراشه والقهر والذل والهوان والغضب والحزن والمرارة كل ذلك شكل مزيجاً مهيناً في نفسه.

ثم شب في نفسه شعور باللوم وتأنيب الذات على عدم ذهابه في اليوم المحدد لطلب نشوى. كان ذهابه إليها بكرامة ودون أن يعلم أحد من إخوتها أو والدها. كان استقبال الأمر لديهم سيكون مختلفاً وترحيبهم به شديداً.

أما الآن فقد سقطت كرامتى سقطة مروعة أمام نفسى وأمام نشوى وأمام أهلها. ثم حدثته نفسه بأن هؤلاء مجموعة من اللصوص أرادوا

سرقة الفيلا لإعطائها لابنتهم. من الذي يدفع فيلا مهراً لفتاة هذه الأيام؟ وهل أنا المخطئ وحدي فابنتهم أقذر منهم؟ وهل يتمكن رجل من امرأة رغماً عنها؟ هؤلاء بلطجية ورعاع وأولهم تلك الفتاة التي تدعي الشرف وأنني اغتلت براءتها، لعنة الله عليك، وعلى براءتك، وعلى أهلك أجمعين، ولعنة الله عليَّ أنا أيضاً. لم أحسِن تدبر الأمر ولم أحسِن التفكر في عواقبه. وظل يطلب النوم وهو في هذه الصراعات والمرارات.

دارت برأسه ذكريات العام الماضي كله. تذكر بداية معرفته بنشوى وكيف اختطفها من محمود حبيبها السابق بكل سهولة. وتذكر الليالي الجميلة التي قضياها معاً وإن كانت قد اصطبغت بطابع مرير هذه الليلة، ثم تذكر الإهانة الساحقة والشتائم التي قالتها له في اللقاء الأخير، تذكر كيف خدعه ضلاله ووهمه وصور له أنه سيفلت بفعلته. تذكر التفكير الساذج أنه أصبح من أكابر البلد ولن تصل إليه أيدي الدهماء والرعاع.

ولام نفسه بشدة حين تذكر قول اللواء ماهر له: (إنك في خطر حقيقي). ونسي أنه رجل أمن محنك خبير بالأيام والليالي.
ثم تذكر أنه لم يبال لحظة واحدة بالهموم والمشاكل والمصائب التي كانت تحيط بنشوى وهو شريكها على كل حال. وتذكر في غمرة الندم والألم قانون "نيوتن": لكل فعل رد فعل.
ثم تذكر عبارة رائعة تقطر حكمة وبُعْدَ نَظر كان قد قرأها للعبقري الخالد الروائي محمد عبد الحليم عبد الله في روايته غصن الزيتون

وقد ارتكب بطل القصة قريباً مما فعله حمدى. كانت العبارة الرائعة هي: "من دخل من باب الجريمة خرج من باب العقاب ومن دخل من باب اللذة خرج من باب الندم".

ثم نهض من فراشه وقد وضع يديه على رأسه مثل النائحات حين تذكر رد فعل أسرته إذا علمت أنه باع الجوهرة التي يهيمون بها وهي فيلا الساحل الشمالي باعها لامرأة - ربما يعرفون قصتها بعد ذلك - عنوة ثمناً لنزوة من نزواته في ليلة حالكة السواد.

ثم ازدادت الكوارث على رأسه بفكرة أخرى حين سأل نفسه هل يعقل أن يتبوأ رجل أهين كل هذه الإهانات منصباً مرموقاً. إن للمناصب الرفيعة هيبة يمتلكها صاحبها تحميه مِنْ تحرش السفهاء به وتكاد هذه الهيبة تلازمه من يوم مولده. ثم طرد هذا الخاطر الأليم من رأسه فوراً مطمئناً نفسه كيف يعلم أولو الأمر بما حدث وما سوف يحدث. إنه زواج شرعي كأي زواج شرعي. وهذا أنسب الحلول للوضع الكارثي الذي أحياه سينتهي الأمر بعقد القران وسيتوقف هؤلاء الكلاب عن متابعتي أو إيذائي وستهدأ الأمور وتعود إلى طبيعتها بعد حين.

ذهب حمدي مبكراً إلى الشهر العقاري ووقع عقد البيع ووثَّقه ثم أخذه بنفسه إلى منزل أهل زوجته الجديدة. استقبلوه بالترحاب والزغاريد والقبلات وأقبلت نشوى ومازالت شاحبة باهتة مكدورة مهزومة. وتم عقد القران وتوزيع الشربات ثم سألوه: ألن تأخذ زوجتك معك الآن

لكي تحتفلا معاً بسهرة على النيل. لعن آباءهم وأجدادهم في سره ثم قال: قريباً سوف أخذها إلى عش الزوجية.

شعر بإرهاق وإجهاد شديدين وامتلك رأسه صداع شديد وفرغت رأسه ونفسه من التفكير في شئ. ثم توجه إلى منزله وأضواء السيارات القادمة تطارده وتفقأ عينيه يراها أشباحاً ذات وهج أبيض، ثم وصل إلى منزله بصعوبة، وصعد السلم بصعوبة أكبر ثم ارتمى على فراشه كما هو.

***

obeikandl.com

في الصباح نزل إلى السيارة وليس في رأسه مكان لتفكير أو استعداد للذهاب لمكان محدد وأثناء تردده أمام السيارة لمح جاره القديم الذي لم يره من سنوات طويلة المستشار حسن البصري.

كانت سمعة المستشار حسن في الحي سمعة نقية طاهرة كالمسك فهو الرجل الطيب المتواضع الذي لا يرد أحداً يطلب مساعدته. والذي يخصص مرتباً ثابتاً لكثير من الأسر الفقيرة ويؤمن تماماً بالحديث الشريف: "قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار".

كان من الطبيعي أن يتصافحا، وسأله حمدي عن عمله فعلم أنه رئيس بمحكمة الاستئناف، وسأله المستشار حسن ببشاشة ظاهره وود صادق عن أسرته وعن عمله، ثم اقترح عليه أن يشاركه صالون الاثنين في بيته ذلك الصالون الذي يحضره كثير من المثقفين والأدباء ورجال القضاء، ثم وجه المستشار حسن له كلمات الثناء التي يحبها: وأنت أحد كبار المثقفين، فلماذا لا تشاركنا أحاديثنا ومناقشاتنا؟ فعل هذا الإطراء فعله ووجدها فرصة سانحة لاستعراض مهاراته الخطابية. لم يكن شئ أحب إلى نفسه من الانطلاق في الحديث أمام الآخرين يصول ويجول في موضوعات شتى بثقافته العريضة وأسلوبه الشيق الجذاب الذي يستولي على عقول الحاضرين.

في يوم الإثنين التالي ذهب حمدي إلى صالون جاره وبدأ المستشار حسن فعرَّفه على الحاضرين وعرَّف الحاضرين عليه. كان منهم السلفي والإخواني والشيعي واليساري والليبرالي وغيرهم من

القيادات السياسية والقضائية، وكان أغلب حديثهم في هذه الأيام عن الأحداث الكبرى التي تمر بها مصر وما يخبئه لها القدر. وقرر حمدي أن يسلخهم واحداً واحداً وأن يسحقهم في منازلة تهتز لها أفئدتهم. وبدأ المنازلة باستدراج الشيخ السلفي دون أن يشعر، سأله حمدي عن حكم الشرع في إطلاق اللحية - وكانت لحية الشيخ كثيفة ممتدة إلى صدره، فرد الشيخ: إنها سنة واجبة.

وهنا انطلق حمدي كالطوفان الهادر: السنن يا مولانا تنقسم إلى سنن عادات وسنن عبادات، ونحن مأمورون فقط بإتباع سنن العبادات حيث قال رسول الله صل الله عليه وسلم: "خذوا عني مناسككم" أما سنن العادات فلنا مطلق الحرية في اتباعها أو الإعراض عنه.

فصاح الشيخ مقاطعاً: كيف تقول عن سنة رسول الله (الإعراض عنها)

رد حمدي قائلاً: أوضِّح لك يا شيخ بطريقة أخرى هناك سنة نزل بها الوحي وهذه واجبة لا مندوحة عنها، وسنة أخرى لم ينزل بها الوحي ولنا فيها خيار الاتباع أو الإعراض.

همَّ الشيخ بالكلام، فاسترسل حمدي: أنت تعرف قصة تأبير النخل؟ فسأله احد الحاضرين عنها فقال: الرسول صل الله عليه وسلم مرَّ على بعض أصحابه فسألهم ماذا تفعلون. فقالوا: نقوم بتأبير

النخل. فقال: لا داعي لذلك. وجاء محصول البلح سيئاً في ذلك العام فاشتكوا إلى رسول الله فأمرهم بأن يفعلوا ما يرونه صالحاً وقال لهم قولته الشهيرة (أنتم أعلم بأمور دنياكم). وفي غزوة بدر نزل رسول الله صل الله عليه وسلم بأصحابه في مكان ما من أرض المعركة فسأله الخباب بن المنذر: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فرد رسول الله صل الله عليه وسلم بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فرد الخباب بن المنذر: فإنني أرى أن ننزل في مكان آخر - أشار إليه - أدنى ماء من قريش. فاستحسن رسول الله رأيه وقال: نِعْمَ الرأي. فكما ترى يا شيخنا أن هذه سنة لم ينزل بها وحي فعدل عنها وعدل المسلمون عنها بلا حرج، وقصة "بريرة" معروفة. فسأله الحاضرون عنها فقال لهم: إنها كانت أمَة مملوكة أعتقها أهلها وكانت زوجة لمغيث العبد فملكت أمر نفسها بالعتق فطلقت نفسها. وكان مغيث شديد الحب لها وكانت شديدة الكراهية له فكلم مغيث رسول الله في ذلك، فكلمها في أن تراجعه وتظل زوجة له، فقالت: أتأمرني يا رسول الله قال: بل أنا شافع فأبت أن تراجعه ولم تجد في نفسها مجالاً لتحقيق شفاعة رسول الله لشدة كراهيتها له، ولم يُخطِّئها رسول الله ولا المسلمون. وتستطيع أن تجد الكثير من ذلك في كتب الاجتهاد ، وأفضلها وأنفعها في رأيي كتاب الاجتهاد للدكتور عبد المنعم النمر.

فقال له الشيخ وما قولك في الآية الكريمة: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾. فرد عليه حمدي: هذا أيضاً فيما فيه وحي علينا أن نأخذه بحذافيره.

صعق الحاضرون من هزيمة الشيخ السلفي الذي ضيق عليهم حياتهم من قبل وأصابهم إعجاب مخلوط بالدهشة من سعة علم حمدي وثقافته الدينية.

أشار الحاضرون إلى أحدهم وكان إخواني الهوى. فقالوا لحمدي: ناظره يا د.حمدي فسأله حمدي عن رأي الإخوان في "مبارك" فقال: إنه أساء للبلاد والعباد وإن نظام حكمه اتسم بالاستبداد والفساد.
فسأله حمدي: إذن فلماذا يقول مرشد الإخوان إنه ولى الأمر وإنه كالوالد للمصريين جميعاً. ضحك الحاضرون جميعاً.
ثم سأل حمدي الإخواني قائلا: ما رأيك في حكم العسكر؟

فقال: إنه ديكتاتورية لا يمارى فيها أحد.
فقال له: ولماذا تعاون محفوظ نحناح في الجزائر مع العسكر ضد جبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية في التسعينات عقب تنحي الشاذلي بن جديد وإلغاء الانتخابات البرلمانية؟ ولماذا قبل الإخوان أن يشاركوا في مجلس الحكم مع بول بريمر المحتل الأمريكي الذي دخل العراق ومزَّق أوصالها؟

وأشار الحاضرون إلى أحدهم وكان شيعي الميول. فانقض عليه حمدي بالصواعق حيث سأله:

- لماذا يعتقد الشيعة أن أبا بكر وعمر قد دبروا مسألة الخلافة بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى؟ ولماذا سبابهم للصحابة رغم إفتاء الإمام خامنئى بحرمة ذلك؟ ولماذا هذه المناحات التي تنصب في ذكرى كربلاء حيث تسيل الدماء منهم من شدة ضربهم لأنفسهم؟

وهنا تدخل الحاضرون وطلبوا من المستشار حسن إعداد الطعام وطلبوا تأجيل بقية المناقشة إلى لقاء آخر. وبدأ الطعام يتوافد و الكل يتحدث ويعلق إلا رجلاً واحداً منهم ظل يحوقل ويضرب كفاً بكف.
فسأله جاره: ماذا بك؟ فقال:

- سبحان الله - لله في خلقه شئون - لقد رأيت من علم حمدي هذا ما رأيت بنفسك وأنا جاره منذ عشرين عاماً لم أره يدخل المسجد مرة واحدة. كيف يكون المرء على هذه الدرجة من العلم ثم لا يعمل به؟ كيف يكون ذا عقل راجح وحجة قوية ولسان عذب هكذا ثم لا يعطي لله حقه ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾.

***

في اليوم التالي تصفح حمدي جرائد الصباح وهو يشرب القهوة فوقعت عيناه على عنوان كبير، وكان عنوان المقال (الأسد الهابط من السماء) بقلم رئيس التحرير. ذكر فيه أن المجتمع السياسي والثقافي والإعلامي فوجئ بأسد يقتحم الساحة يكيل الاتهامات للأحزاب جميعاً، وينتقد الوزراء واحداً تلو الآخر، ويصف الحزب الحاكم ورجاله بأبشع الصفات، وقد أثار هذا المثقف إعجاب الطلاب في الجامعة حتى صاروا يستقبلونه استقبال الفاتحين ورأى العامة فيه مثقفاً بارعاً وسياسياً عملاقاً شجاعاً يدافع عن حقوق الغلابة والفقراء المهمشين. وكم من مرة سَخِر هذا البطل الشجاع منا فاتهمنا بالنفاق والتزلف والسير في ركاب السلطة لمنفعة عارضة زائلة.

ذلك هو المستشار الدستوري الكبير د.حمدي حسين الذي سيسقط من أعلى السموات إلى أسفل الأراضين حين يعلم الكافة أنه كبير المنافقين وأستاذ المتسلقين وعميد الممسكين للعصا من المنتصف، يظهر للجمهور بوجه المصلح الاجتماعي ورجل الدستور الذي يقض مضاجعه الاقتراب منه، سوف يُذْهَل القرَّاء حين يعلمون حقيقة هذا الرجل.

لابد أن يعلموا أنه منذ ثلاث ليال تقدم بكل آيات الاستعطاف والتوسل والضراعة إلى رجال الحزب الوطني لكي يَقْبَلوه ضمن لجنة السياسات ، وقد خضع لكشف الهيئة وتصفحوا أوراقه ثم وعدوه بالنظر في طلبه، ثم تعطفوا عليه وأشركوه معهم على العشاء. ذلك ما

حدث من هذا الحقوقي الكبير نصير الفقراء وصاحب المبادئ. ثم ختم رئيس التحرير المقال بأن تَحَدَّي د.حمدي أن ينكر ذلك ووعده إن فعل ذلك بمفاجأة صاعقة.

دارت الدنيا برأس الدكتور حمدي وطار صوابه وصعق من هول ما قرأ كان يظن أن مثل هذه اللقاءات لا يعلم بها أحد. وراح يضرب أخماساً في أسداس ويحاول أن يتصور وقع هذا الخبر المشئوم على طلابه وعلى بقية الناس.

كان حمدي حديث عهد بالسياسة وألاعيبها ، وكان عوده غضاً طرياً لا يفهم في مكائد السياسيين شيئاً. لم يستوعب حمدي أن الحزب الوطني حزب مترهل يضم أشتاتاً عديدة من أصحاب المصالح وفِرَقاً كثيرة من الطبالين والمنافقين تتوافق مصالحهم حيناً وتتعارض أحياناً أخرى، لم يدرك ما أدركه عامة الناس أن الصراع بين الحرس الجديد في الحزب والحرس القديم صراع بقاء وليس صراع مصالح فقط، وكانت أجنحة كثيرة في الحزب قد انضمت إلى الحرس الجديد وبدأت في مهاجمة الحرس القديم، وكان رجال الحرس القديم بخبرتهم ودهائهم يعلمون أن هؤلاء الساسة الجدد سائرون بالنظام إلى حتفه لا محالة.

كان حمدي بحداثة عهده بالسياسة ورعونته يتصور أنه طالما لم يهاجم رئيس الجمهورية مباشرة، فقد أمِن مكر النظام كله. لم يكن يعلم أن كل مدارس الحزب وأجنحته تتفانى في التزلف والنفاق

والتقرب إلى رأس النظام، وكل منها في سبيل أن تظل وحدها صاحبة الرضا لا تمانع في نهش لحوم المدارس الأخرى واغتيالهم معنوياً وسياسياً.

وما حدث بالتفصيل هو أن أحد الوزراء الذين كان حمدى يكيل له الاتهامات والنقد العنيف قد اتصل ليلتها برئيس التحرير المذكور، وبعث له بصورة لحمدي في الاجتماع. ولم يضيع رئيس التحرير وقتاً والتقط الهدية الثمينة، كان ينقم على حمدي إعجاب العامة والخاصة به، وكان حانقاً على رجال الحزب الذين لم يدعوه إلى الاجتماع المذكور حيث الأنس والصفقات وتبادل المنافع.

وكان بداخله ككل المنافقين شعور بالدونية والوضاعة لكثرة انحنائه وانبطاحه ويود لو يستطيع أن يهاجم ما يراه معوجاً ولكنه لا يقوى على ذلك. وكان يشعر بالمرارة والأسى عندما يحكي له أبناؤه عن ازدراء زملائهم ومعايرتهم بأبيه المنافق الكاذب الإمعة.

جن جنون حمدي وذهب وأرسل تكذيباً إلى الصحيفة ، وطالبهم بنشر التكذيب في نفس المكان وبنفس البنط عملاً بقانون الصحافة. ثم ذهب إلى الجامعة يقتله التوجس و الحذر والخوف من المجهول.

وجد الطلاب أمام المدرجات ساهمين وشاردين على وجوههم الأسى وخيبة الرجاء ، وما إن شاهدوه حتى إلتفوا حوله يسألونه في هلع عما نشر اليوم. فضحك واستصغر الأمر أمامهم وأكد لهم أن ما نشر

كذب في كذب، ووعدهم أن يروا التكذيب منشوراً في اليوم التالي، وطالبهم أن يتوقعوا أمثال هذه الأكاذيب بين حين وآخر من أمثال هذا الصحفي المنافق.

تنفس الطلاب الصعداء وهدأ روعهم وخف اضطرابهم . لم يكن هناك شئ أقسى عليهم من صدمتهم في أستاذهم وزعيمهم ومثلهم الأعلى. واعتذر حمدي عن المحاضرة في ذلك اليوم لأنه مشغول بتوكيل محام ليقوم بمتابعة القضية إذا خانهم ذكاؤهم ولم ينشروا التكذيب كما يريد.

لم يكن حمدي ذاهباً إلى محام كما ادعى وإنما خارت قواه من حيرة الطلاب وقلقهم ولهفتهم على عدم تصديق شئ يسيء إلى مثلهم الأعلى ، فراح يرسل أنفاساً عميقة من الدخان ويقول لنفسه آه ثم آه لو عرفوا الحقيقة. صحيح أن حمدي حضر العشاء الفاخر ولكنه لم يتقدم لعضوية لجنة السياسات أو أية لجان أخرى فأحلامه أكبر من ذلك بكثير...

ذهب حمدي إلى اللقاء لكي يتعرف على صفوة المجتمع ويتعرفوا عليه عن قرب، وعينه على منصب وزاري رفيع؛ الخارجية أو الثقافة. ظن حمدي أنه إذا اتصل بأمين الحزب الذي دعاه فربما يجد لديه حلاً لهذه الورطة، فهو رجل متزن حنكته التجارب ويعلم أن انكشاف حقيقة حمدي أمام طلابه ليس في صالح حمدي ولا في صالح

الحزب الحاكم. وماذا يفعل الحزب (بكارت) محروق ليس له أية خلفية جماهيرية؟

وفعلاً اتصل حمدي بأمين الحزب في القاهرة فلم يعثر عليه إذ كان تليفونه مغلقاً ، فقرر الاتصال بأمين التنظيم وكان شاباً متغطرساً مغروراً ينظر إلى أمثال هؤلاء الجامعيين نظرة لا تخلو من استعلاء، فهم جميعاً في نظره طلاب سلطة يسيل لعابهم لمقعد البرلمان أو منصب تنفيذي في أي موقع.

ودار الحوار التالي بين حمدي وأمين التنظيم:

حمدي: مساء الخير يا معالي الأمين. أنا الدكتور حمدي حسين.
الأمين: حمدي حسين مَنْ ؟

حمدي متلعثماً: أنا يا أفندم أستاذ القانون الدستوري و الدولي الذي تشرفت بمقابلتك في اللقاء الحزبي الأخير.
الأمين: لا اذكر. على العموم طلباتك يا د.حمدي؟

حمدي: لقد نشرتْ إحدى الصحف بقلم رئيس تحريرها مقالاً عني وقالت إنني قضيت السهرة في الحزب وأنني تقدمت بطلب لعضوية أمانة السياسات وطبعاً سيادتك تعلم...

أمين التنظيم مقاطعاً : ومتى تقدمت بالطلب وإلى من قدمته؟ ولماذا تأخرت هكذا في تقديم الطلب؟ على العموم سوف أبحث هذا الأمر وأزكيك لنيل العضوية.

حمدي: سيادتكم لا تفهم قصدي. كنت أتمنى لو صدر تكذيب من طرفكم في الحزب لما يقول هذا الصحفي حفاظاً على الشكل العام الذي أظهر به.

الأمين: وقد جن جنونه: وهل لقاؤك يا أفندي مع كبار رجال الدولة وقادة السياسة والثقافة والإعلام وقادة الأحزاب في مصر يضر بشكلك؟ أنت عبيط يا ابني ولا (بتستعبط ولا إيه) ؟

حمدي: سيادة الأمين لا تغضب مني فأنا أمثل دور المعارض الشرس وما حدث سوف يجعلني أمام طلابي (كارتاً) محروقاً.

الأمين: وهو مازال في قمة غضبه: (ما تتحرق بجاز أنت والطلبة بتوعك) ، وأنا سوف أحاسب السفيه الذي دعاك إلى هذا اللقاء، يبدو أن غرورك وطموحك الزائد عن الحد قد أنساك نفسك، أنت واحد من آلاف الجامعيين الذين ينتظرون إشارة من سبابتي ليهرولوا نحوي راكعين. أفق أيها المغفل من غفوتك وتذكر أنني بجرة قلم استطيع أن أمنع مقالاتك التافهة في الصحف، وبإشارة أخرى أستطيع أن أقطع رجلك قبل دخولها إستوديوهات الفضائيات التي تتفاخر بها أمام زملائك وطلابك . مع السلامة (ياسي حمدي يا بتاع التكذيب. قال إيه تكذيب) ، وأغلق السماعة في وجهه...

شعر حمدي بدوار رهيب وأظلمت الدنيا في عينيه فها هو على ما يبدو قد خسر مكانه عند أسياده وغدا ربما يخسر مكانه عند طلابه ومشاهديه ويصبح بعدها نسياً منسياً. ظل صامتاً وقد وضع رأسه على المكتب فوق ذراعيه.

وبعد فترة ليست بالقصيرة استعاد جزءاً من هدوئه وراح يطمئن نفسه ، هذا شاب غرير أحمق ومعروف عنه الحماقة والغرور وليس كل أولي الأمر كذلك وربما أنجح في توسيط آخرين عنده فيشفعون لي ويعفو عني ، وربما يكون الآخرون غير راضين عن سياساته، وعندئذ يأخذونني تحت أجنحتهم. ثم لماذا أفكر في الأمر بهذه الطريقة السوداوية؟ إن الصحيفة إياها إذا نشرت التكذيب فسوف ينتهي الأمر ولا داعي لتضخيم الأمور وتحميل المسائل فوق ما تحتمل واستراح لهذه النتيجة وطلب عصيراً وغسل وجهه ثم خرج.

سارع حمدي إلى الاتصال بإحدى القنوات الفضائية لكي يسمحوا له بتسجيل حوار معه عن أحداث الساعة ورحبوا بالفكرة. كان صاحب القناة ينتمي إلى الحرس القديم وكان مقدمو البرامج على سياسته بالطبع.

في ذلك الوقت من تاريخ مصر خرج الإعلام عن وظيفته في نقل الحقيقة إلى الناس، وتحول المذيعون إلى نشطاء سياسيين يوجهون الرأي العام إلى الوجهة التي يريدونها. وهذه ظاهرة عجيبة في تاريخ

مصر أن يتحكم بعض المذيعين والصحفيين الذين تحولوا إلى نشطاء أيضاً عبر الشاشة أن يتحكموا في توجيه الرأي العام والسيطرة عليه.

كان هؤلاء النشطاء الجدد يتقاضون مرتبات خيالية وصلت إلى أكثر من مليون جنيه في الحلقة الواحدة مقابل أن يرغي ويزبد ويشتم هذا ويسب ذاك، ولم يكن هذا كله لوجه الله طبعاً وإنما بأوامر صريحة من مالك القناة.

ولم يكن ملاك القنوات الفضائية سوى بعض المغامرين من رجال الأعمال الذين قرروا أن يوظفوا الإعلام لصالح شركاتهم وبنوكهم ومصانعهم. وبلغ نفوذ هؤلاء حداً رهيباً، فالوزير الذي لا يوافق على الاستثناءات تنهال عليه القناة نقداً وتجريحاً، ويتم إعداد الجمهور المتصل بالبرامج لكي يقوم بدوره في سب الوزير والإساءة إلى كل قراراته ، وتظل القناة على هذا المنوال فإما أن يرضخ الوزير أو تنجح الحملة الشعواء عليه في الإطاحة به.

واستعذب قادة الرأي العام من مقدمي برامج (التوك شو) هذه اللعبة فتضاعفت أرصدتهم في البنوك وصارت أراضي الدولة وممتلكاتها نهباً لأعلاهم صوتاً. وقد صرخ النقاد ورجال الإعلام الشرفاء في هذا البلد بأن ما يحدث في مصر ليس له مثيل في العالم، فملكية القنوات الفضائية الخاصة في أمريكا في منتهى الصعوبة ولا يزيد رأس المال الخاص بها عن عشرين في المائة وليس له حق التصويت عند اتخاذ القرارات الخاصة بتوجه القناة السياسي.

ظهر حمدي على شاشة القناة في تلك الليلة وانهال نقداً على سياسات البلد وعلى الشباب القادم من المجهول ليقود سفينة الوطن في زمن الأعاصير والبراكين. ثم بلغه أثناء تسجيل الحلقة أن أمين الحزب الوطني بالقاهرة قد أقيل من منصبه وأن حمدي لن يدخل أية قناة فضائية بعد اليوم.

***

obeikandl.com

في اليوم التالي جاءه اتصال من زوجته الجديدة نشوى ، فلعن رقمها اللعين الذي يتراقص أمامه على شاشة الموبايل وكاد يبصق فوقه ثم رد عليها.

فقالت بدلال: ماذا تفعل يا زوجي العزيز لماذا لم تحضر لكي نتفق على إجراءات ومواعيد الزفاف؟ ألم نتفق على الانتهاء سريعاً من كل ذلك؟

فقال لنفسه: زفاف إيه الله يحرقك. ثم سكت ، فسألته: هل تسمعني؟
- طبعاً لماذا تتعجلين؟ عندي مسائل في العمل لابد من الانتهاء منها.
ردت عليه: أنت تعلم سر العجلة في الأمر وهو الموضوع إياه الذي تعرفه.

فرد حانقاً: حاضر يا سيدتي. حاضر سوف أنفذ كل شئ بسرعة ولكن اتركيني الآن فأنا في منتهى الكدر والغم.
فسألته: ماذا بك؟

فرد عليها: يا سيدتي أشياء لا تهمك ولا يمكن الحديث عنها في التليفون.
فقالت: إذن تمر علي ليلاً بعد انتهاء عملك ونخرج سوياً. ألسْتُ زوجتك ولي حقوق عليك؟

فرد عليها وقد فقد صبره: لا يمكن أن يتم هذا اليوم أو غداً. دعيني الآن وشأني وسوف أتصل بك في الوقت المناسب. مع السلامة.

حرص حمدي على أن يكون أول من يشتري الصحيفة إياها في اليوم التالي وطالعها بشغف شديد وقلبه يدق وعيناه تتجولان بسرعة في الصحيفة حتى وصل إلى بيت القصيد مقال رئيس التحرير وقد نشر التكذيب مستهزئاً به ومعه صورة حمدي وهو جالس بين أركان الحزب الوطني ووعد حمدي بمزيد من الأدلة والبراهين على تملقه للسلطة التي يهاجمها ليل نهار.

شعر حمدي بعد رؤية الصورة أن سقف الحجرة قد سقط فوق رأسه وأغلق الصحيفة وارتمى على المقعد لا يجد حلاً ولا مخرجاً من ورطته هذه. ظل الشعور بأنه يسقط من أعلى إلى أسفل يراوده ، رأى أحلامه في طريقها إلى أن تتهاوى ، فما يحدث ليس طريق الأحلام وإنما طريق الخيبة والضياع سواء من ناحية نشوى أو الصحيفة أو سدنة النظام الحاكم.

اهتدى حمدي لفكرة أن يذهب إلى طلابه وألا يهرب منهم في هذه الأوقات وبالفعل ذهب إليهم وعانقهم وراح يخفف عنهم ضاحكاً: ألم تسمعوا عن الصور الملفقة؟ ألم تلعبوا لعبة الفوتوشوب أيها الأصدقاء؟ أستطيع بهذا الفوتوشوب أن أجعلكم الآن مجتمعين مع رئيس الولايات المتحدة.

ظل يمزح ويضحك دون أن تنتقل العدوى للطلاب، وظلوا يتحركون معه كأنهم في تنويم مغناطيسي مسلوبي الإرادة ساهمين كأن على رءوسهم الطير. وكان حمدي قد لاحظ ذلك جيداً عند دخوله عليهم، لاحظ أنهم واقفون ينظرون إلى البعد اللانهائي كما ينتظر أهل المتوفي وصول جثة قريب لهم وهم واقفون على قارعة الطريق.

تساءل حمدي عن سبب الذهول والحيرة العجيبة التي هم فيها، فوجد في يد كل منهم نسخة من الصحيفة ومعها منشور. وكان "محمود" حبيب نشوى القديم هو الذي يقوم بتوزيع الصحيفة مع المنشور.

كان البيان أو المنشور يتحدث في ديباجته الأولى عن خيانة المثقفين لآمال الجماهير، وغدر النخبة بوطنهم، وتوظيف الموهوبين لملكاتهم لصالح النظام الحاكم. تحدث البيان عن أمثلة كثيرة من المثقفين والأدباء والصحفيين الذين آتاهم الله حسن البيان وسعة الفكر ثم اتخذوا هذه الموهبة طريقاً للحصول على مغانم يأخذونها من الحاكم ولو كانت من أمعاء الوطن ثم انتقل البيان إلى طرح بعض الأسئلة منها:

١- من الذي أوهمنا أنه المثقف البارع الشجاع والحقوقي الذي يغار على الدستور والمخلص المؤمن بقضايا أمته ضد الفساد والاستبداد ثم اتضح أنه كان يسوق بضاعته لدى سادته بالهجوم عليهم أولاً ثم السعي إليهم يقبل أعتابهم ويلتمس منهم الرضا والقبول؟

٢- من الذي التففنا حوله - نحن طلاب الجامعة - الذين ضاقوا ذرعاً بكل الممارسات الإجرامية للنظام القائم بحثاً عن مثل أعلى فملأ قلوبنا محبة له وملك عقولنا إعجاباً بأمانته وشجاعته؟

٣- وهل يمكن أن نثق بزعيم سياسي أو مثقف يدعي الشجاعة بعد كل الذي حدث؟

٤- من الذي يذوب كيانه أمام النساء وتذهب بعقله الجميلات وحكاياته في هذا المجال تملأ الصفحات والمجلدات؟

ثم اختتم البيان تساؤلاته بالآية الكريمة:

﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ صدق الله العظيم.

قرأ حمدي البيان ثم راح يردد في ذهول وكأنما ركبته الحمى: ما هذا الهراء؟ ما هذه الأكاذيب الحقيرة؟ لا يمكن أن أكون أنا المقصود بهذه التساؤلات. لابد من مقاضاة الصحيفة وغلقها وسجن رئيس التحرير. لن اسكت أبداً عن هذه الدسائس ثم

من كتب هذا البيان الوضيع؟ لابد أنه شخص موتور امتلأ قلبه حقداً، وربما يكون مأجوراً من الأمن أو من النظام.

فناداه طالب من بعيد سائلاً: ولماذا اعتبرتَ نفسكَ المقصود بهذا البيان يا دكتور رغم أنه لم يذكر اسمك، أليس هذا شيئاً ملفتاً للنظر؟

شعر عندها حمدي أن هيبته وسطوته على تلاميذه وقوة شخصيته، كل ذلك يمكن أن يضيع في لحظة إن قرر الرد على هذا الطالب أو جادله أو جادل أحداً في هذا الموقف، فمثله لا يستدرك لمعركة لم يحدد زمانها ومكانها. وأشار إلى بعض خلصائه أن يصعدوا معه إلى مكتبه هرباً من مواجهة الجموع التي تنظر إليه متحفزة والشك يكاد يقفز من عيونهم بكل وضوح.

في مكتبه بدأ الحديث موجهاً كلامه للقلة القليلة التي صاحبته ومكثوا معه وهم ناكسو الرءوس يجلل الحزن والألم وجوههم. بدأ حمدي حديثه عاطفياً مهزوماً يحاول الوصول إلى قلوب الحاضرين: ما هذا الذي يحدث يا أحمد؟ لماذا أنت ساكت وشارد هكذا؟ ثم وجه حديثه في اتجاه آخر: ماذا بك يا مصطفى وأنت يا محسن؟ ماذا بكم أيها الأصدقاء؟ ماذا دهاكم أيها الأوفياء؟ أهكذا أتصدقون وشاية حقيرة عني بكل هذه السهولة؟ هل هذه أول مرة يتعرض فيها صاحب رأي حر لحرب ضروس. أتتخلون عن أستاذكم الذي أحبكم وصادقكم

وجلس معكم الساعات وتناولتم معه الطعام والشراب كالأسرة الواحدة؟ ألم تشاهدوني مئات المرات في المحاضرات واللقاءات التليفزيونية أهاجم الصغير والكبير؟ وهل هذه طريقة لنيل ثقة ورضا أولي الأمر؟ هل نسيتم دفاعي عن زملائكم المحبوسين وزياراتي للمرضى منكم؟ هل نسيتم استدعاء أمن الدولة لي؟ وهل يَستدعِى أمن الدولة رجلاً من رجال النظام؟

كان مندفعاً كعادته في مرافعاته وصوته يكاد يختنق من شدة الحزن وهم مطرقون صامتون كأنهم في سرادق عزاء. ولكن حمدي ذلك المتحدث اللبق واللسان الفصيح نجح في تذويب الجليد بينه وبينهم وبدأوا يميلون إلى تصديقه وتجديد الثقة به.

كان هناك سبب خفي لتصديقه وهو أنهم لو تأكدوا من كذبه فستكون هذه الضربة القاصمة لاتزانهم النفسي. كانوا قد وضعوا كل أحلامهم فيه والتفوا حوله وما أحوج التائهين إلى زعيم؟ كان تكذيبه يعني هزيمة نفسية ساحقة وتحطيماً معنوياً لن يتعافوا منه في الأجل القريب. وبعد قليل من الهدوء والاطمئنان المشوب بالحذر. استأذنوا في الخروج فعرض عليهم أن يوصلهم واحداً واحداً إلى منازلهم فشكروه ودعوا الله ألا يخيب ظنهم فيه.

***

في يوم الإثنين التالي كان رواد الصالون الثقافي في منزل المستشار حسن البصري على موعد مع حديث شيق للدكتور محمد عبد الحليم في قضية خطيرة وهو الانفصال المذهل بين إبداع العقل وانحطاط الروح.

سأله الحاضرون عما يقصد بهذا العنوان الفخم؟ فشرح فكرته قائلاً: إننا نرى في حياتنا أناساً في قمة الذكاء والإبداع العقلي والنبوغ الذهني ولكنك لو تتبعت سيرتهم الشخصية وأحوالهم وتصرفاتهم ستجد بعضهم في درجات مذهلة من الانحطاط الخلقي. أي تباين وتناقض هذا بين سمو العقل وتسفل الروح؟ طلب الحاضرون منه أمثلة لما يقول فذكر أن هناك مخترعين عظماء ولكنهم شواذ جنسياً ووزير الخارجية الألماني الحالي شاذ أو مثليّ كما يسمونهم هناك.

ثم تابع: هل قرأ أحدكم ذكريات د. زكي مبارك بعنوان (ليلى المريضة في العراق)؟ كان زكي مبارك يُسمى الدكاترة زكي مبارك لأنه حصل على دكتوراه في ثلاثة أفرع من العلم بعيدة كل البعد عن بعضها. حصل على دكتوراه في الأدب ودكتوراه في القانون ودكتوراه في الطب. وكانت له أشعار في أعلى درجات السحر والجمال وكان "طه حسين" يشيد بكل ما يكتب من نثر أو شعر. تصوروا أن زكي مبارك هذا في ذكرياته تلك في صفحة ٧٠ يقول:(مضت أعوام وأنا لا أداوي امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها. وقد وقعت لي من ذلك حوادث سيطول عليها ندمي حين أثوب إلى رشدي أنا الطبيب الآثم الذي زعزع عروش السعادة في كثير من البيوت).

حدث ذلك حينما افتتح عيادة طبية في القاهرة.

- تخيلوا هذا العبقري يذهب إليه الرجل بزوجته ليعالجها من مرضها فيبذل جهده لاختطافها من زوجها.

شعر الحاضرون بصدمة عنيفة إزاء ما يسمعون، ثم استرسل قائلاً:

- كان نزار القباني شاعراً موهوباً بحق وقد امتلك ناصية اللغة الجميلة والأسلوب العذب والموسيقى الرائعة. ولكن قصائده كلها لا تخلو من الحديث عن النهود والأرداف والقبلات والمضاجعة، حدثتني نفسي أن اشتري آخر دواوينه فربما يكون تقدم العمر قد أكسبه شيئاً من الوقار والأدب في أشعاره فوجدته أشد فحشاً من دواوينه السابقة.

هل تصدقون أن احمد شوقي أمير الشعراء كان مدمناً للخمور؟ حتى أنه هجا شهر رمضان المعظم وشبهه بالسجن لأنه يحرمه من تناول الخمور فقال في إحدى قصائده:

رمضان ولَّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق
بالمس كنا سجيني طاعة واليوم مَنَّ العيد بالإطلاق

وكانت لأحمد شوقي سقطة أخرى وذلك حينما سافر الخديوي عباس حلمي الثاني لأداء فريضة الحج وطلب من شاعر القصر شوقي أن يكون ضمن قافلة الحج فتسلل شوقي وهرب من هذه الرحلة. هل تتصورون أن مسلماً يهرب حين يعرض عليه أداء فريضة الحج في صحبة الحاكم معززاً مكرماً بلا تعب ولا مشقة ولا تكاليف مادية من أي نوع؟ هل تتصورون أن مسلماً يمكن أن يهرب من هذه الرحلة إلى

بيت الله الحرام وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد غضب منه الخديوي لذلك غضباً شديداً فكتب شوقي اعتذاراً بليغاً له في قصيدة (إلى عرفات الله) وهي من أجمل ما شدت به أم كلثوم والقصيدة موجهة إلى الخديوي ولكن أم كلثوم حين غنتها غيرت فيها وبدلت.
يقول شوقي مخاطباً الخديوي:

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله في عرفات

فحولتها أم كلثوم إلى:

إلى عرفات الله يا خير مرسل عليك سلام الله في عرفات

ويقول شوقي في بيت آخر: إذا زرت يا مولاي قبر محمد.
فحولتها أم كلثوم إلى: إذا زرت بعد البيت قبر محمد.

ثم استرسل د. محمد عبد الحليم في أمثلة أخرى قائلاً: هل تصدقون أن الثائر العظيم سعد زغلول كان مدمناً للقمار وخسر أغلب ثروته في القمار حتى اشتكت زوجته السيدة صفية زغلول إلى والدها رئيس الوزراء.

ثم أنهى المتحدث قائلاً: وغيرهم كثيرون يعطيهم الله سعة العلم ونبوغ العقل ولكنهم ينحدرون بأخلاقهم إلى أسفل سافلين.

ثم علل ذلك في نهاية حديثه الطويل مفسراً: إن النبوغ العقلي هبة من الله سبحانه للعقل تتحكم فيها الجينات الوراثية، أما السمو النفسي والروحي والخلقي فهو أمر شاق نكتسبه حين نزكي أنفسنا وندربها على احتمال الصعاب والصبر على المكاره والصبر على أداء الطاعات، فالنفس بطبيعتها أمارة بالسوء كما قال المولى عز وجل (إِنّ النّفْسَ لَأَمّارَةٌ بالسُّوءِ إِلّا مَا رَحِمَ رَبّي) ولذلك نحن محاسبون إن لم نقم بالرقابة عليها وأن يكون الضمير يقظاً لا يسمح للنفس باقتراف الموبقات، وما يؤيد كلامي قول المولى عز وجل (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

صدق الله العظيم.

حل الموعد الذي اتفق عليه د.حمدي مع الطبيب النفسي د.كمال منصور، كان الحلم المفزع لم يعاود حمدي منذ فترة طويلة، فشعر حمدي بالاطمئنان ولذلك لم يبادر إلى الاتصال بالدكتور كمال بل هو الذي بادر بالاتصال بحمدي، وسأله بمودة ولطف عن أحواله ثم عاتبه برقة بالغة:

د. كمال: هل نسيت موعدنا؟!

حمدي: لا. لا أشكرك أولاً على اتصالك وسوف انتظرك - إذا سمحت - الليلة في نادي الأطباء كما اتفقنا الساعة العاشرة مساء فهل يناسبك ذلك الموعد.

د. كمال: يناسبني وسوف آتي إليك قبل الموعد.
والتقى حمدي وكمال. وبدأ الطبيب النفسي حديثه بذكاء وحرص شديدين استهل كلامه عن أحوال البلد وعن تذمر الشباب وعن مواقع التواصل الاجتماعي التي تغلي بالثورة ومازال الحاكم يعيش في واد آخر ووطن آخر لا يشعر ببواطن الأمور. ومَنْ حوله سادرون في غيهم وقد أعماهم بريق السلطة وقدرة الداخلية على البطش.

بالمعارضين. ثم دلف إلى موضوعه بسلاسة قائلاً:
كمال: هل جاءك الحلم السخيف إياه مرة أخرى؟
حمدي: مرة واحدة فقط.

قال: هل تغير شئ في أحداث الحلم أو تفاصيله أو أشخاصه؟
حمدي: إطلاقاً، هو صورة طبق الأصل من كل مرة سابقة.

قال: إذن حدثني عن نفسك يا دكتور حمدي بك عن طفولتك وصباك وشبابك واستفض في الحديث عن أحلامك وآمالك ومتاعبك فكلي آذان صاغية ولن أمل الاستماع فنحن أصدقاء كما اتفقنا ويهمني معرفة كل شئ عنك.
ولم يدر حمدي بماذا يبدأ؟ ولا ماذا يحكي له عن والده الحلاق المتجول الذي مازال متربعاً أمام الزبائن على الكوبري؟ أيحكي له عن الكراهية العميقة المتبادلة بين الابن وأبيه وبين الأخوة جميعاً؟ هل يحكي أن كل فرد يكره الآخرين فرادى وجماعات؟

قص حمدي عليه بعض الذكريات القديمة عن طفولته الفقيرة ثم صباه ثم فترة شبابه الأولى وكيف كان تلميذاً عادياً لا يتمتع بأية مواهب خارقة. ثم تحدث عن زوجته وكيف تزوجها وعن أسرته.

سأله الطبيب: علاقتك بزوجتك، كيف حالها؟

أجاب حمدي بصدق: علاقة عرجاء، فهي سليطة اللسان وأنا حاد الطباع وهي لم تفكر يوماً في إضفاء طابع البهجة على الأسرة. يبدو أن غيرتها عليَّ من بعض الحكايات تثير غضبها ونقمتها.

قال: وهل هذه الحكايات حقيقية؟

حمدي: بصراحة أنا رجل أعشق النساء الجميلات وبعض ما تسمعه زوجتي عني صحيح.

كمال: وأولادك؟

حمدي: أولادي أشعر نحوهم بحب جارف رغم كراهية أبي لي. ولكنهم تأثروا بما تحكيه لهم والدتهم عن نزواتي النسائية. ولكنهم على أية حال مؤدبون معي ومحترمون ولكن العلاقة معهم ليست دافئة.

كمال: وهل تزوج أحد منهم؟

حمدي: لي بنتان تزوجتا وقد جهزت لهما أفضل جهاز للعرائس، ولي ولدان أحدهما طالب بالطب لم يتخرج بعد والآخر محاسب تخرج منذ سنتين.

سأله الطبيب: ألم تفكر في عمل لابنك المحاسب؟

حمدي: هو الذي يجب أن يختار العمل الذي يناسبه ويبحث عنه.

قال: هل تزور قريتك؟

حمدي: لم أزرها منذ أعوام كثيرة ربما أربعة أعوام.

الطبيب: ووالدتك؟

حمدي: والدتي تعتقد أنني لم أحسن استقبالها أثناء زيارتها مع والدي لنا، وكلما فكرت في زيارتها تذكرت ذلك الرجل الكريه الذي يمقتني وأمقته وتذكرت أخوتي الذين يحقدون عليَّ ويكرهونني لأنني لا أعطيهم كل دخلي من الجامعة ومن مؤلفاتي وعندئذ أرجع عن قراري بزيارتها.

الطبيب: هل يدعوك أحد في القرية لأفراح أو مناسبات؟

حمدي: طبعاً يدعونني ولكني لا أجد وقتا لذلك.

كمال: هل تحضر جنازات الأقارب أو الجيران أو المعارف؟

حمدي: لا.

obeikandl.com

كمال: ولكن الناس قد تنسى من يشاركهم أفراحهم ولكنهم لا ينسون من لا يشاركهم في أحزانهم. إن حضورك جنازة بين الحين والآخر لا يكلفك وقتاً كثيراً؟

حمدي: بصراحة يسوءني جداً الوقوف في طوابير المعزين. كيف أقف وسط مجموعة من الفلاحين والعمال وأنتظر دوري لكي أسلم على أهل المتوفي؟! هذا شئ فوق طاقتي واحتمالي.

كمال: يمكنك أن تحضر العزاء ليلاً وتستمع إلى القرآن الكريم ثم تكون أول الخارجين، وتسلم عليهم أنت أولاً ولا تقف في الطوابير.

حمدي: هذا شئ غير مضمون ولم أفكر فيه من قبل.

كمال: هل يعرف أولادك وبناتك أعمامهم وعماتهم؟

حمدي: لا.

كمال: ألم تفكر في القيام بمبادرة لإصلاح ذات البيْن في الأسرة كلها باعتبارك أكبرهم سناً ومقاماً؟

حمدي: لن يرضيهم ذلك فكلهم حاقدون كارهون، وأنا لا أرى في نفسي قدرة على الجلوس معهم أو سماع أصواتهم أو رؤية وجوههم العكرة.

كمال: أليس لك أصدقاء دراسة قدامى تصلهم ويصلونك؟
حمدي: هم أيضاً أصحاب حاجات وطلاب مصالح لابد أن أقضيها لهم وإذا تقاعست أقاموا الدنيا وأقعدوها ولا أعتقد أنهم يخلون من حقد وبغض أيضاً وبالذات الأطباء منهم.

كمال: ولماذا الأطباء تحديداً؟
حمدي: لأنهم يرون أنهم كانوا أكثر نبوغاً وتفوقاً مني في سنوات الدراسة ثم أنا الآن أفضل منهم وأكثر نجاحاً وشهرة وسطوة وجاهاً عنهم.

كمال: أليس فيهم جميعاً طبيب ناجح في عمله لا يحقد عليك يمكن أن تكون لك معه علاقة ودية ويكون أنيسا في أوقات الصفاء والذكريات؟ أنا أعلم أن الطبيب الناجح محمد عبد الحليم كان زميل دراسة وله شأن عظيم.
حمدي: هذا بالذات لا أطيق سماع اسمه ولا رؤيته.

كمال: هل تؤدي فروض الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج؟
حمدي: أحياناً.

عندئذ أدرك كمال أنه لم يعد في حاجة إلى مزيد من الأسئلة، وكوَّن الصورة الواضحة عن مريضه وركز كلماته وأفكاره لكي يصوغها لحمدي في شكل موجز ومفيد.

قال كمال: اسمح لي يا صديقي حمدي بك، إن مشكلتك ليس لها علاقة بالطب النفسي فليس عندك مرض نفسي يستحق علاجاً أو جلسات أو أدوية. أصارحك القول إن انقطاع أواصر الصلة بينك وبين أسرتك الصغيرة والكبيرة وأقاربك وزملائك وأهل بلدتك كل ذلك وَلَّدَ لديك الشعور بالوحدة في أعماقك، وهو ما يُصَدِّر لك حالة الوحشة المفزعة في الحلم الذي يعاودك.

حمدي: وما الحل؟

قال: أرى يا د.حمدي أن تبدأ فوراً في تغيير نمط حياتك بالكامل. لابد أن تصل أهلك وأصحابك القدامى، لابد أن تعيد الدفء إلى أسرتك، لابد أن تجد عملاً لابنك الذي تخرج وهو الآن بدون عمل، لابد أن تراعي مشاعر الزوجة والأولاد ولا تصدمهم بين الحين والآخر بنزوات تتلهى بها وتكدر عليهم حياتهم، لابد أن تطلب الصفح من والدتك وأن تأخذ أخوتك في أحضانك رغم عيوبهم وأن تستعين بهم لإذابة المرارات التي بينك وبين والدك، لابد أن تشارك الناس أفراحهم وأحزانهم. لا أظنك يا د.حمدي سعيداً حتى في صحوك، لا أظنك تستمتع بأغنية أو مقطوعة موسيقية قديمة تحن إليها. تقبَّل نصيحة أخ مخلص وصديق يحب أن يراك اسعد الناس. صدقني لا يستطيع الإنسان أن يعيش في مجتمعه مقطوع الصلة بذويه وجيرانه وأهله.

عندئذ استشاط د. حمدي غضباً بطريقة مفاجئة ولمعت عيناه بالغل والشر وانتفخت فتحتا أنفه وهو المنظر الذي يكون عليه عندما يشعر أن هناك من يحاول النيل من كبريائه.

فصاح حمدي بصوت أجش: يا دكتور أنا لم ألجأ إليك لتعطيني دروساً في الحياة، ومواعظ في صلة الرحم، ومقطوعات عن الفضيلة. ولا أقبل منك اتهامي بالفشل في حياتي واتهامي بسوء التصرف. أرجوك أن تحافظ على أسلوبك فمثلي لا يُخاطب بهذه الطريقة.

عندئذ دب اليأس تماماً في نفس د.كمال وقام لينصرف قائلاً:
- لقد شخَّصْتُ لك الحالة ووصفتُ لك العلاج وما قصدت إغضابك أو إزعاجك. ولك مطلق الحرية أن تفعل ما تشاء. أما أنا فدوري قد انتهى وضميري مستريح. ولكن أهمس في أذنك همسة أخيرة: لقد تغيرت نبرة حديثك معي لتباعد الكابوس عنك من فترة طويلة، فظننتَ أن الأمر قد انتهى ، ولكنني أقول مخلصاً للمرة الأخيرة أنك واهم وسوف يعاودك
- وإن كنت لا أتمنى ذلك - هذا الحلم طالما ظللت على أسلوبك. فما ظني بما يحدث إلا أنه رسالة من الله سبحانه إليك، وختاماً لك اعتذاري.

بعد أن انصرف د.كمال جلس حمدي وحيداً يفكر فيما قال وبدأ خوفه من رجوع الكابوس يطيح بجزء لا بأس به من الغرور والغطرسة.

فهمَّ أن يجري ليعتذر لكمال الذي تكلف عناء ترك عيادته والحضور إليه ولكن قسوة طباعه غلبته فظل في مكانه.

جلس حمدى فى مكانه وحيداً يجتر بمرارة ذكرياته القديمة وقام بعملية جرد لتاريخ حياته كى يتبين الحقيقة من الوهم ومواضع الإحسان والإساءة منه وإليه عبر ماضيه الطويل.

تذكر كيف كان يجبره والده على الذهاب إلى (الفرقة)، وهى المجموعة التى كانت تقوم بتنقية شجيرات القطن من لطع البيض التى تتركها دودة القطن لكي يفقس البيض وتخرج آلاف الديدان الجديدة التى تلتهم محصول القطن.

كان حمدى يذهب مع أطفال القرية ضمن العمل الإجبارى الذى ينتهك آدمية الأطفال والصبية والفتيان فى الأجازة الصيفية.
كان الأطفال يقومون من النوم فى الخامسة صباحاً، ويتحركون فى قوافل فى الساعه السادسة، حتى يكونوا على رأس العمل فى حقول القطن فى السابعة صباحاً.

وكان الأطفال فى عملهم هذا لكى يتمكنوا من التقاط لطع البيض لابد لهم من الانحناء فى وضع الركوع لكى يتفرسوا شجيرات القطن القصيرة، وكلما زاد طول الصبى كلما زاد انحناؤه. ويظل الأطفال فى حالة الانحناء الراكع الذى يقصم الظهور من السابعة صباحاً حتى الثانية ظهراً تلتهب خلالها أشعة الشمس الحارقة فتكوى جلودهم

وتتصاعد الحرارة اللاهبة من شجيرات القطن فتكوى وجوههم وجباههم .

والويل كل الويل للطفل الذى يرفع ظهره ليستريح دقيقة أو دقيقتين عندئذ يأتيه الكرباج بغتة من خلفه على ظهره أو على رأسه فيرتد مسرعاً مذعوراً إلى الانحناء الذليل .

كانت بحق فترة حالكة فى تاريخ حمدى وتاريخ أطفال مصر فى سنوات الستينيات والسبعينيات، حيث يتم التعذيب الوحشى لهؤلاء الأطفال فى وهج جهنم الحارقة فى الحقول. ثم يُسمح للأطفال بعد ذلك بساعة راحة يتناولون فيها طعام الغذاء الذى لا يزيد أبداً عن رغيف خبز وثمرة خيار وثمرة طماطم يحضرها كل طفل معه من بيته فى منديل مربوط ويخبئه فى مكان ما من الحقل حتى لا يسرقه طفل آخر. ثم تعود المعاناة من جديد حينما يرجع الأطفال إلى العمل من الساعة الثالثة عصراً إلى الساعة السابعة مساءاً قبل أن يسمح لهم بالخروج من هذا المعتقل عند آذان المغرب.

لم تكن هناك هيئات أو منظمات أو جمعيات تتبنى الدفاع عن الأطفال ضد العمل القسرى فى سنوات الطفولة الأولى.
و لم يكن الأباء فى وضع يسمح لهم بالتمرد على أوامر الجمعية الزراعية، فضلاً عن أنهم ينتظرون القروش القليلة التى يحصل عليها الصبية من الجمعية الزراعية فى نهاية اليوم.

كان أعمار الأطفال تتراوح بين الخامسة والثانية عشرة ولم يلتفت أحد لهذه الجريمة البشعة ولا اقشعرت أبدان الحقوقيين أو الثوريين على سواء.

كانت وجوه الأطفال تحكى الحالة الصحية لهم، فكلهم مصابون بالأنيميا والغالبية العظمى منهم مصَّت البلهاريسيا نضارة وجوههم ومنهم من انتفخت بطونهم من تضخم الكبد والطحال والاستسقاء.

إلا أن المشكلة كان لها وجه آخر، إذ أن الساعة التى يقضيها الأطفال فى الراحة المزعومة من الثانية إلى الثالثة ظهراً كانت تشهد تحرش بعض الأطفال الأشداء بالضعفاء منهم، وربما يصل العنف إلى الضرب والسرقة بالإكراه لطعام الطفل.

كانت حياة حمدى فى هذه السنوات دوامات من الأحزان و الآهات. وكان قدوم الصيف بالنسبة له بداية الهموم والآلام النفسية والامتهان والمذلة. كان يرى فى نفسه تلميذاً مجتهداً ينتظره مستقبل طيب وكان يرى أن ما يحدث فى غيطان القطن خدش لكرامته وجرح لكبريائه وطعن لثقته بنفسه. كان يرى الأطفال حوله فى انتظار التشرد والمستقبل المظلم. أما هو والقلة القليلة الذين يحلمون بالانتظام فى الدراسة ومواصلة التعليم فسوف يكون لهم شأن أخر، والأدهى و الأمر على نفوس هذه القلة هو استعباد واستبداد الأطفال الأشداء بهم. كان الطرف القوى هو الطرف الذى انقطع عن الدراسة وانتظم

فى عمليات النشل ليلاً والتسول نهاراً والعمل فى حقول الذرة والقطن صيفاً.

لم ينسَ حمدى يوماً كيف أجبره هؤلاء الرعاع على التخلى عن رغيفي الخبز وثمرتى الخيار وهو طعام الغذاء الذى أحضره صباحاً من داره ليكون قوت يومه.

و لم ينسَ يوماً كيف اعتدى عليه بعض البلطحية من الفتيان وظلوا يسبونه ويكيلون له اللكمات بدون سبب إلا عزوفه عنهم وانزوائه بعيداً كأنما يعاملهم كما قالوا على أنه (أفندى).

تركت هذه السنوات جروحاً غائرة فى شخصيته لم تندمل رغم تعاقب عشرات السنين، وكان حمدى يبتسم بمرارة وأسى كلما تذكر أجر اليوم الكامل فى لهيب أغسطس لطفل راكع ذليل . كان الأجر سته قروش يقبضها أبوه من الجمعية الزراعية أولاً بأول، لا يعلم حمدى عنها شيئاً.

وبعد أن كبر تساءل بينه وبين نفسه كيف نسى عبد الناصر هؤلاء الاطفال؟ ، عبد الناصر الذى خاطب الشعب المصرى: "ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الإستعباد" هو نفسه الذى ترك الأطفال تنحنى ظهورهم وتدفن رؤوسهم فى شجيرات القطن الملعونة.

كأنما كان النداء الناصرى: "ارفعوا رؤوسكم إلا أطفالكم وفتيانكم فليس لهم إلا أن يكونوا عبييد أبائهم، وعبيد الجمعية الزراعية، وعبيد دودة القطن".

انتقل حمدى فى شريط ذكرياته المرير إلى الفترة التى حاول والده فيها أن يعلمه مهنة الحلاقة، وكيف كان حمدى يبكى بمرارة عندما يكرهه والده على حمل حقيبة الحلاقة الخشبية والسير خلفه.

وفى سنوات الدراسة الابتدائية كان أبوه يشده عنوة وهو يستذكر دروسه ويقول له: " تعلم لك صنعه تأكل منها عيشاً يا ابن العبيطة "ويجره خلفه.

كان أكثر ما يؤلم حمدى رؤية زملائه له وهو يمشى خلف والده حاملاً شنطة الحلاقة. وكان المهذبون منهم يديرون وجوههم كأن لم يروا شيئاً، أما السفهاء فكانوا يمشون خلفه وهم ينشدون: "شعر ولاً ذقن يا حمدى".

كان يبكيه تجاهل المهذبين لأنه يدرك أنه عطف عليه أكثر مما تبكيه أناشيد السفهاء الذين يعيرونه بهذه الحقيبة الملعونة التى يحملها ويحمل معها الخزى و العار. ثم يسرح حمدى فى سماء النادى ويناجى نفسه ويجتر أحزانه : أه يا حمدى لكم تحملتَ ولكم قاسيتَ بلا ذنب ولا جريرة.

تذكر يوماً حين كان فى بداية السنة الخامسة الابتدائية جاءه زميل له ووقف أمامه وسأله: " هل معك شنطة الحلاقة يا حمدى؟ فأنا أريد أن أحلق رأسى " .

وهنا انقض عليه حمدى وطرحه أرضاً وظل يكيل له اللكمات ويخبط رأسه فى بلاط الفصل ، ثم هوى على أنفه فالتقمها بأسنانه حتى تفجر الدم منها وملأ وجه الضارب و المضروب.

و تحدثت المدرسة كلها عن انتقام حمدى من زميله السمج، وغاب حمدى بعدها أياماً خوفاً من انتقام أهل الطفل الذين كانوا يتربصون به وينتظرونه أمام المدرسة .

و ظل حمدى يسأل عن هذا الولد مع مرور السنين و شفى نفسه و أبرأ سقمها علمه أنه سائق لسيارة نصف نقل .

***

وفى المحطة الثالثة من ذكرياته برز وجه (منى) تلك الفتاة التى هام بها فى سنوات الدراسة الثانوية وسنوات الحقوق.

كانت فتاة نحيلة سمراء قصيرة القوام ، لم يكن لها من الجمال نصيب كبير. ومع ذلك تعلق قلبه بها فى سنوات المراهقة الاولى.

كانت أصغر منه بعامين، وكان يقف أمام باب المدرسة الثانوية للبنات ينتظر خروجها بلهفة، ويمشى وراءها من بعيد، وكان زملاؤه ينتقدون اهتمامه بها ويسخرون منه. ولكنه يرد عليهم الرد المفحم الذى يحفظه كل عاشق : "إنى أحبها هكذا".

ولكن العجيب فى الأمر هو معاملتها له بغلظة وفظاظة. ظل يتودد إليها ويبعث إليها مع زميلاتها إشارات الحب والهيام وكان ردها عليه مزيداً من الإهمال والنفور.

كانت تنتمى لعائلة ميسورة الحال وترى فى حمدى شاباً فقيراً خالياً من كل مقومات الجاذبية. فهو ابن الرجل المعدم سليل الفقراء وليس فى ملامحه ولا مظهره ما يشدها إليه حتى ترتيبه الدراسى لم يكن بقدرٍ ملفتٍ للأنظار.

ظلت تعامله بهذه الطريقة البشعة وهو يزداد هياما بها يوماً بعد يوم ثم دخلت كلية الأداب وتمت خطبتها فى السنة الثانية ثم تزوجت فى السنة الثالثة وظل ينعى حظه كلما رآها واستمر فى دراسته للحقوق

وتفوق بها وعُيِّن معيدا بالكلية وبلغته أنباء طلاقها السريع فشَعُر بشماتة ممزوجة بالشوق لمعرفة اخبارها.

وفى يوم من الأيام اختلقت "منى" سبباً لكى تذهب إلى كلية الحقوق لكى ترى وقع رؤيتها على حمدى، وهل مازال على حبه لها أم لا؟ وقابلها حمدى وهى سائرة بمفردها فى طرقات الكلية والتقت عيونهما فعقدت المفاجأة لسانه وتوجه إليها وسلم عليها.

سألها عن سبب المفاجأة العجيبة فقالت له إنها جاءت لزيارة إحدى قريباتها. وبالطبع سألها عن أخبارها فأفصحت بسرعة ملفتة عن طلاقها بعد أن اكتشفت أنها خَدعت فى زوجها الذى أغراها بالثراء والسيارة والهدايا ثم اتضح أنه بخيل يعبد النقود. وكان يهينها بإستمرار ويَقتِّر عليها فى نفقات المنزل حتى تعقدت الأمور بينهما إلى أن انتهت بالطلاق.

سألها حمدى إن كان يمكنه أن يدعوها إلى كافتريا الكلية لتناول بعض المشروبات، فرحبت على الفور. وفى الكافتريا ذكَّرها بحبه القديم، وكيف كان يتمنى لحظة واحدة من هذه الدقائق التى يقضيها الآن معها، وعاتبها على سوء معاملتها معه. وردت بأن هذا تصرف البنات المؤدبات (المتربية) كما علمتها أمها. وأبدى حمدى استعداداً مدهشاً للصفح الجميل، وتبادلا أرقام التليفون وظل يطلبها وتطلبه بين الحين والآخر.

وتكررت لقاءاتهما ولاحظت أنه لم يطلب يدها للزواج. وظلت تنتظر لقاءً بعد آخر وهو على موقفه لا يفاتحها بشئ. حتى اضطرت إلى تذكرته بطريقة تجيدها الأنثى وهى إنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأن كلام الناس عن لقاءاتهما بدأ يقلقها و يصل إلى مسامع أهلها. وفهم حمدى ما ترمى إليه بل كان يتوقعه منذ رآها بالكلية وعندئذ صارحها بأنه غير مستعد للزواج فى الوقت الحاضر، فعرضت عليه أن يتقدم بشبكة صغيرة إلى أن تتحسن ظروفه، فتهرب منها.

ولما فتش فى داخله عن هذه المشاعر المتناقضة إذ هو يفرح بلقائها وينتظره ويشعر بالسعادة معها، ورغم ذلك لا يريد أن يتقدم لها. ولم يجد بداخله سببا لذلك إلا محاولة الانتقام من الماضى الذى يذكره بضعفه وهوانه. وكان طبيعياً أن يشملها هذا الانتقام فلم تكن لقاءاتهما إلا إزجاءً للوقت واستمتاعاً بأن الزمن قد دار دورته، فها هى الآن تطلبه وتلح عليه وهو يرفض ويتمنع بعد أن كان يتمنى نظرة منها وهى تعامله بكل الجفاء والنفور .

فطنت "منى" إلى ذلك فقررت أن تشعل حبه القديم وتثير غيرته، حدثته عن الخُطّاب الذين يتقدمون لها، وبدأت تتمنع فى تلبية دعواته للخروج. ولم يشعر حمدى لا بالإحباط القاتل الذى كانت تتوقعه ولا بالغيرة المجنونة التى كانت تتخيلها وانسحبت منى من حياته فتركها غير آسف عليها ولا نادم على أيامها.

***

وفى المحطة الرابعة من ذكرياته برز وجه ملائكى نورانى يشع من بعيد كنجم من أقصى المجرات تحيطه الأسوار العالية والحراس الأشداء، لم يكن ذلك سوى وجه (فيفيان) الفتاة الجميلة التى كان يراها من بعيد وهى تلهو فى حديقة القصر المهيب. كان والدها باشا من أكثر البشوات مالاً ونفوذاً وهيبة وسطوة .

كان اسم مصطفى باشا حلمى كفيلاً بإثارة الرهبة والهلع والإعجاب فى نفوس أبناء القرية. سمع حمدى فى طفولته أباه يتحدث مع بعض الرجال عن الباشا بدون ذكر الاسم، وكان هذا يعنى مصطفى باشا حلمى فلم يكن بهذه المنطقة الشاسعة من محافظة الدقهلية إلا هذا الباشا. وسمع القصص الكثيرة والأساطير التى تحكى عما يدور خلف أسوار القصر.

كان قصراً من قصور ألف ليلة وليلة، يترامى وسط الحدائق على مساحة عدة أفدنة، تحيطه من بعيد أسوار الأسمنت العالية ثم خلف الأسوار الخرسانية سلك شائك عالٍ، ثم مستطيلاً رائعاً من أشجار النخيل العملاقة تحيط بالقصر من كل الجوانب، وخلف الأسوار من الداخل حراس أشداء وكلاب بوليسية مدربة تدريباً جيداً على اقتناص الأغراب.

سمع الحكايات عن باشاوات الأربعينيات الذين كانوا يزورون مصطفى باشا وكيف كان القصر يُفْتَح فى مناسبات محددة يتوالى فيها دخول

سيارات الباشاوات من القاهرة والإسكندرية لقضاء سهرة فى أرياف الدقهلية.

و أتيح لحمدى أن يشاهد هذا القصر من بعيد أثناء ذهابه صباحاً إلى حقول القطن و مساءً عند رجوعه بعد أن انحنى ظهره طوال اليوم فى تنقية شجيرات القطن من لطع الدود.

كانت المفارقة صارخة، قصر منيف وباشوات وحراس وفتاة جميلة تجري بمرح في حدائق القصر الغنَّاء ومربيتها تجري وراءها أما حمدي فهو صاحب الملابس الممزقة والوجه الأسمر الذي لفحته الشمس طيلة اليوم ورائحة الدود واللطع وشجيرات القطن تعلق بأسماله البالية.

تمني حمدي لو أتيح له أن يعرف شيئاً عن هذا الكون الغامض الذي يمر من أمامه صباحاً و مساءاً، وفي أثناء رجوعه مساءً من حقول القطن ذات يوم تعمد حمدي أن يتأخر عن قطيع الصبية والفتيان ثم مر من أمام القصر، ورأي حارساً نوبياً يجلس علي كرسي أمام البوابة الرئيسية، فتعمد حمدي أن تنزلق قدمه ويتهاوي بنصف جسمه في الخندق الذي يحيط بالقصر وهمّ بالوقوف فساعده الحارس وأجلسه بجواره، فشكره حمدي وسأله عن اسمه وعمله.

سارت بينهما مودة تسمح لحمدي أن يلقي عليه السلام كل يوم صباحاً ومساءً. وفي يوم من الأيام حمل إليه حمدي بعضاً من طعامه

الذي تبقي معه، وهو عبارة عن رغيف خبز وثمرة خيار وقدمها للحارس فضحك الحارس طويلاً، ثم أخبر حمدي أن العمال والحراس والموظفين في هذا القصر يأكلون في (بوفيه) مفتوح في الدور الأول خاص بهم وسأله حمدي عن أنواع الطعام فقال له: كل اللحوم والمشويات والحلويات وما لا يخطر علي بالك.

ثم تنهد الحارس طويلاً بحزن حقيقي وقال لحمدي : رحم الله الباشا ترك ثروة طائلة لابنته الوحيدة فيفيان. وعرف حمدي أن هذه الفتاة الجميلة التي تلهو دائماً في حديقة القصر هي فيفيان تلميذة السنة الأولي الاعدادية.

وتحدث الحارس عن أيام العز والهناء والنفوذ أيام الباشا العظيم وكيف كان كبار القوم يهابونه ويتمنون منه نظرة عطف أومودة.
وحكي الحارس لحمدي عن وفاة الباشا، وقال له أنه صُدم ككل البشوات من قرارات الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية، ثم كانت المصيبة ليلة حضر ضباط لجنة تصفية الإقطاع وأهانوه وعاملوه بطريقة حقيرة وشتموه أمام الحراس والموظفين.

وأصيب الباشا بأزمة قلبية حينما حاول أحد الضباط أن يجره من ملابسه لكي يركب سيارة الشرطة بتهمة التهرب من قوانين تحديد الملكية. وحينما سقط الباشا بين أيديهم وخر مغشيا عليه تركوه وفي الصباح خرج السر الالهي.

مرت السنوات وحمدي يمر أمام القصر يجالس الحارس ويشرب معه الشاي ويعرف منه بعض أخبار فيفيان. كانت فيفيان تذهب إلي المدرسة الثانوية للبنات في سيارة خاصة، وبدأ حمدي يقف أمام المدرسة يطالعها من بعيد.

ثم بدأ يرسل إليها خطابات علي عنوان القصر بدون أن يذكر اسمه، كانت خطاباته مهذبة وعفيفة ورقيقة، كان يتحدث عن نفسه بأنه ابن الفقراء الذي ينظر بإعجاب ومودة إلي فتاة رقيقة ليست من طبقته، ولكنه لا يستطيع أن يكتم حبه وشغفه وإعجابه بها، ولا يريد أكثر من أن يبثها مشاعره في خطاب حتي ولو كان بدون إسم، فلا مطمع لدود الأرض أن يرقي إلي عنان السماء ولكنها مشاعر سامية محبوسة يريد أن يرسلها إليها، وكان يوقع أسفل الخطاب بـ (ابن الفقراء).

وكتب الشعر الركيك في حبها وفي جمالها وفي تعاليها علي الاخرين، وكلما تحركت مشاعره يكتب قصيدة ويرسلها عبر البريد. وكبرت فيفيان ودخلت كلية الطب بالمنصورة فكان يحضر المحاضرات لكي يراها ويحجز لها مكاناً دون أن يكلمها.

ولاحظ أنها لا تكلم أحداً ولا تصادق أحداً ولا تسأل أحداً، تدخل إلي المحاضرة وتكتب ما تراه مناسباً وتخرج دون أن تنطق بكلمة واحدة. ولما تم تعيين حمدي في كلية الحقوق ظن أن باستطاعته أن يتقدم لها في الكلية ويعرفها بنفسه وكلما همَّ بهذا العمل منعه مانع لا يدري كنهه فيتراجع عنه.

وفي يوم من الأيام استجمع شجاعته، وقرر أن يذهب اليها ويخبرها أنه صاحب الخطابات الرومانسية العذرية، وأنه كان يحجز لها مكاناً في المحاضرة رغم أنه لا يفهم شيئاً مما يقال، وأنه جلس مع حارس القصر أمام البوابة آلاف المرات ليعرف شيئاً عن أخبارها.

قرر حمدي أن يفعل ذلك في لحظة شجاعة خاطفة. وارتدي حلة جميلة وذهب اليها واعترض طريقها وناداها: آنسة فيفيان، أنا د. حمدي معيد بكلية الحقوق ونحن بلديات. فهزت رأسها وقالت ببساطة ولا مبالة : أهلاً ثم رفعت يدها لكي تزيح خصلة من الشعر من فوق جبهتها فلاحظ حمدي دبلة الخطوبة في إصبعها فتلعثم وجف حلقه

فسألته: نعم ؟!
فقال لها: شكراً. كنت أريد أن أسأل ان كنت تريدين شيئاً. فشكرته وانصرفت.

وحين بلغت الأنباء عن نية حمدي مفاتحة فيفيان في الزواج إلي والده الأسطي حسين لم يزد عن أن قال لابنه: "مالك يا صعلوك ببنت الملوك".
وفي المحطة الأخيرة من ذكرياته برزت صورة المدرسة التي قضي فيها سنوات الدراسة الابتدائية والإعدادية.

كان زملاء حمدي يُعيّرونه بالملابس الممزقة، فشكي لأمه فقامت بترقيعها، وكانت ألوان الرقع مختلفة عن ألوان الملابس فازداد

المنظر بؤساً. وكان ابن العمدة يجلس عن يمينه وابن أحد الأثرياء عن يساره، ثم يتباري كل منهما في الإشادة بحجم الرقعة التي تحت يده، فيضع الأول يده علي رقعة كبيرة علي كتف حمدي الأيمن، ويضع الثاني يده علي رقعة أخري علي صدر حمدي من الناحية اليسري، ويقوم كل منهما بقياس حجم الرقعة التي لديه بالمسطرة ثم تنتابهما موجات الضحك المتتالي، وحمدي صامت بينهما يبكي دماً في داخله لا يراه من حوله.

تذكر حمدي أن والدته صنعت له من ملاءة قديمة (شورتاً) لكي يرتديه مع (فانلة) داخلية وكان هذا زيه الذي يسير به قبل دخوله المدرسة. وتصادف أن القطعة التي اختيرت لعمل الشورت كان بها خطان عريضان هما الموجودان في طرف ملاءة السرير. كان الجميع يعرف انهما خطوط ملاءة السرير وكان حمدي يعلم ذلك من تعليقات الاطفال.

قال له بعضهم : ألم تعثر والدتك علي قطعة أخري غير تلك الموجودة في نهاية الملاءة. فسأل والدته عن ذلك، فقالت له أن الملاءة حين تبلي وتتهتك يحدث ذلك في وسطها ولا يبقي منها شيءٌ للانتفاع به إلا الأطراف.

كان حمدي يمشي ويضع ساعده الأيمن علي الخطوط الأمامية في الشورت وساعده الأيسر علي الخطوط الخلفية، ولم يكن عسيراً علي كل من يراه أن يفهم أنه بعقل الطفل الصغير يحاول اخفاء خطوط

الملاءة القديمة. وبذلك تتحول محاولته إلي مصدر متجدد للضحك من أقرانه وللرثـــاء عند ذوي القلوب الرحيمة.

وفي سنوات الدراسة الإبتدائية كان المدرسون في بداية كل شهر يطلبـون مـن التلاميـذ شـراء ورق أبـيض مسـطر كبيـر خـاص بالامتحانـات، يختلـف عن اوراق الكراسـات العاديـة من حيث الحجم والشكل والجودة. وكلما طلب حمدي من أمه عند أول كل شهر شراء هذا الورق كانت تقول له: من أين أحضر لك قرش صاغ لكي تشتري به ورق الامتحانات ؟

ويطلب منه أبوه أن ينتزع ورقتين من كل كراسة لكي يؤدي الامتحان فيها وكان مدرس الفصل بعد تصحيح الأوراق ينـادي عليـه حتي إذا أصبح بجواره يخرج أوراق الكراسة التي أدي فيها الامتحان، ويسأله بإستلطاف سمج ممجوج: مـن أيـة كراسـة قطعت هـذه الأوراق يـا حمدي؟؟ كراسة الحساب؟ أم كراسة الاملاء؟ أم كراسة التعبير؟
فيطأطئ حمدي رأسه ويفعل المدرس ذلك رغم أن إجابـة حمدي في الامتحان لا بأس بها.
طلب المدرسون من التلاميذ أقلام الحبر السائل وكـان هذا بالنسبة لحمدي رابـع المستحيلات. كانـت اجابـة والديـه قاطعـة: عنـدك القلـم الرصاص يكفي.

كان بعض التلاميذ يكتبون الواجب الدراسي بالقلم الحبر وبعضهم يكتب بالقلم الرصاص.وكانت الدرجات عند تصحيح الأوراق تختلف حسب نوع القلم وليس حسب نوع الاجابة.

وفي السنة الثالثة الاعدادية كان حمدي قد تقدم مستواه العلمي وتحركت ملكاته قليلاً وتقدم ترتيبه بين زملائه فغادر المجموعة متوسطة الإمكانات لكي يلحق بأواخر المتقدمين وحاز علي مجموع معقول في الشهادة الإعدادية ولم يكن يدري لكراهية الناظر له سبباً.
كان الناظر الذي يدرس اللغة العربية والتربية الدينية يكرهه ويزجره بشدة ولا يعلم حمدي لذلك مبرراً. فلا هو من التلاميذ المهرجين ولا من المتسكعين خلف البنات ولا من المشاكسين ولا تلاحقه أية أخطاء.
وفي إستمارة الإعدادية كتب حمدي أمام بيان عمل الوالد: فلاح. فشطبها الناظر وكتب مكانها: حلاق ولم يكن ذلك إلا واحدة من التصرفات العجيبة والشاذة للناظر الذي يتربص بتلميذ صغير حيث عمل الوالد لا قيمة له في استمارة الامتحان...

وبعد ثلاثين عاماً من هذه الواقعة مات الناظر وحضر حمدي إلى القرية وتعمد المرور من أمام سرادق العزاء جيئة وذهاباً ليشفي غليله وهو يلعن آباء وذرية المرحوم.
في شهر يونيو من عام ٢٠١٠ مرض الأسطي حسين مرضاً شديداً، واشتدت عليه نوبات مرض السكري، وأصيب بغيوبة سكرية، وطلب الأبناء لأبيهم طبيباً من القرية فأشار بضرورة دخوله المستشفي الجامعي قسم الطوارئ.

تبادل الأبناء آراءهم فشعروا أنه من الأهمية أن يعرف أخوهم الأكبر الأستاذ الجامعي المرموق بمرض والده الخطير. وعندما استقر الرأي علي إبلاغه امتنع كل منهم عن القيام بهذه المهمة الثقيلة. فاتصلت به إحدي أخواته وأخبرته فرد ببرود: انقلوه إلى المستشفي الجامعي وسوف أصل إلي هناك في أعقابكم.

ومر اليوم الأول ولم يحضر حمدي، وفي اليوم الثاني اتصل حمدي بأحد الأصدقاء لكي يدبر له واسطة تمكنه من الدخول إلي المستشفي وتضمن له معاملة جيدة من الأطباء، وبالفعل أبلغه الصديق أنه يستطيع أن يذهب في أي وقت وسوف يعامل بكل احترام.

ذهب حمدي ودخل علي والده ورآه مستقراً في غيبوبة وسأل الأطباء عن حالته فأجابوه. ثم ذهب اليه بعد ذلك بأيام وكانت الحالة الصحية تزداد سوءاً، وازدادت علاقته بالأطباء سوءاً أيضا، فقد حاول التعامل معهم بأستاذية فطردوه من القسم فدخل ونزع خراطيم المحاليل من يد والده وخراطيم الأكسجين قائلا:
ماذا تفعلون أيها العباقرة ؟؟ تحقنونه بالجلوكوز ؟؟ وتكممونه بالأكسجين؟؟ أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك في البيت بعيداً عن وجوهكم.

وبدأ في استدعاء من يحمل والده ولكن الأطباء طلبوا منه التوقيع علي إقرار برغبته في الخروج علي مسئوليته رغم تحذيرهم له بخطورة الحالة. ورفض حمدي التوقيع ورفض الأطباء خروج

المريض واستدعوا الأمن وتفاقم الموقف ولم يكن أمام حمدي إلا الإذعان فوقَّع.

ذهب حمدي بوالده في غيبوبة تامة إلي المنزل وليس إلي مستشفي آخر واستدعي طبيباً حديث التخرج لكي يباشر حالة والده وهوَّن حمدي علي الطبيب مهمته فقال إنهم يعرفون أن الحالة متدهورة ولكنهم يريدون أن يفعلوا ما عليهم قبل رحيله!!!

وكرر الطبيب زياراته للمريض بينما غادر حمدي القرية بأكملها إلي منزله بالمنصورة، ولم يكن أمام الطبيب إلا المحاولات البدائية من طبيب قليل الخبرة حديث التخرج، فازدادت الحالة سوءاً إلي سوء، وإزداد شخير المريض وهبط القلب وهبطت معه الدورة الدموية، وتوفي الحاج حسين بعد أسبوع إلي رحمة الله.

اتصل الجيران بحمدي لكي يبلغوه بوفاة أبيه بعد أن امتنع الإخوة عن الاتصال به للمرة الثانية.
وأصدر حمدي تعليماته بالإسراع في الإجراءات والاكتفاء بالعزاء عند المقابر، وحضر حمدي علي عجل لكي يشيِّع مع المشيعين والده إلي مثواه الأخير، وظل يستعرض في ذهنه تاريخ علاقته مع والده طوال السنوات الماضية وبعد أن انتهي المشيعون من توديع الجثة ركب حمدي سيارته وانطلق ينهب الطريق إلي المنصورة وتنفس الصعداء بإزاحة هم من فوق صدره.

****

في أحد الأيام جلس حمدي في مكتبه شارداً حتى بلغت الساعة الثالثة عصراً. وانصرف كل الأساتذة والطلاب واستأذنت سكرتيرة القسم وانصرفت ولم يَبْقَ مع حمدي إلا أفكاره السوداء وفرَّاش المكتب الذي يؤدي بعض أعماله التي يؤجلها دوماً من الصباح إلى آخر اليوم.

فكر حمدي طويلاً في أحلامه القديمة بتبوُّء مقعد الوزير، وكيف صارت هذه الأحلام رماداً تذروه الرياح بعد أن غضب عليه الرجل الحديدي في الحزب الحاكم، وطافت بأفكاره صور الطلاب الذين تملأ الريبة قلوبهم وتَشِي أعينهم بالشك في إخلاصه لمبادئه وشعاراته التي يرددها منذ سنوات.

فكر طويلاً في الطبيب النفسي الذي أخلص في علاجه وأنفق من وقته الكثير معه، فرد عليه حمدي بوقاحة وعجرفة، وتذكر أن الطبيب صارحه وهو يغادر المكان أن الوحش الكاسر لن يخلي سبيله. وعند هذه الفكرة المحزنة التي تصبغ دوماً أفكاره بطابع سوداوي مأساوي بادر بالاتصال بالإعلامية الحسناء سوزان البدري لكي يسجل معها حديثاً يسترد به بعض الثقة بنفسه ويبعث بقليل منها إلى طلابه، ولكن سوزان اعتذرت وقالت أن اسمه وضع ضمن القائمة السوداء الممنوع استضافتها.

اتصل بقناة أخرى وثالثة فسمع نفس الرد بنفس الكلمات. اتصل بجريدة (الأمل) المعارضة إن كان يمكن أن يرسل إليهم مقالاً

فاعتذروا. إذن فقد فعلها المتغطرس العنيد كما وعد. أدرك ساعتها أن نجمه يوشك على الأفول وأن الدنيا أوشكت أن تعطيه ظهرها. فلا نجومية ولا زعامة ولا طلاب ولا وزارة ولا يحزنون.

ما هذه المصائب التي تتوالى على رأسك يا حمدي؟ هكذا حدث نفسه. وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته ثم رفع ساقيه فوق مكتبه طلباً للاسترخاء، وظل ينظر إلى دوامات الدخان الأزرق في سماء الغرفة. قطع صمته وتفكيره دخول الفرُّاش عليه قائلاً: هنا سيدة بالخارج تريد منك توقيعاً يا (بيه). أجابه حمدي: دَعْها تدخل.

دخلت امرأة في أوائل الثلاثينات من عمرها امرأة ليست ككل نساء العالم. حملق في جمالها مذهولاً، لقد زار أوروبا ورأى من جمال الأوربيات عجباً ولكنه لم ير في حياته مثل هذا الجمال الذي يلجم اللسان ويعطل العقل عن كل تفكير. أهي امرأة حقيقية؟ أم إله الجمال عاد من العصور الوسطى ليسحق إرادات الرجال والنساء على سواء؟ وجه مشرق كضوء الصباح الذي يبدد ظلمة الليل، وعينان صافيتان تلمعان بالفتنة والثقة بالنفس، لها ابتسامة تشرق لها الزهور، ونظرة بالعينين إلى اليمين أو الشمال يلمع فيها حور يذيب الجليد، وخصلات شعرها الكستنائي تتراقص في دلال على جبهتها العريضة مثل جبهة كليوباترا، وأنفها المستقيم الساحر الذي يشي بالكبرياء والغرور.

هذا الفم لم يخلق لتناول الطعام وإنما لكي يكون دليلاً على معجزة الخالق وهاتان الشفتان لم تخلقا ليخرج منهما فحيح الأفاعى وإنما

خلقتا لتهمس بأجمل قصائد الحب والغزل، أما جيدها فتخجل جواهر باريس من أن تقترب منه أو تلامسه. ولمحت هي بنظرة الأنثى وفراستها شدة إعجابه وانبهاره بجمالها، فقالت بدلال: مساء الخير. كان الذهول لا يزال مسيطراً عليه فلم يسمع ما تفوهت به. ظل واقفاً في مكانه ومد يده وسحب لها مقعداً.

وقبل أن تقول شيئاً اتجه ناحية ثلاجة المكتب الصغيرة لكي يخفي اضطرابه وتلعثمه وحيرته.

- ماذا تشربين؟
- شكراً.
- لابد أن تشربي عندي شيئاً.

ومد يده بكوب من عصير الفواكه الطازج، وتأمل أناملها وهي تلمسه برقة ونعومة ثم تأمل شفتيها وهما ترتشفان العصير. تَعَلَّق بصره بكل حركة من يديها أو شعرها أو أناملها وكل لمحة من محياها الساحر.

قالت له: الحقيقة يا دكتور إنني تقدمت لأسجل اسمي ضمن دارسي الماجستير في القانون الدستوري وطلبت الإدارة مني أن أحصل على موافقتك أولاً. وهذا هو الطلب ويشرفني موافقتك عليه.

فقال في نفسه: بل تشرف الجامعة بك ويشرف القانون الدستوري وكل القوانين باهتمامك بها. وقدَّمتْ إليه الطلب فبدأ في قراءته.

obeikandl.com

الاسم: صوفيا فريد الشوبكي
السن: ٣٢ سنة

المؤهل: ليسانس الحقوق دفعة ٢٠٠٤م
الحالة الاجتماعية: متزوجة

فسألها حمدي: مدام صوفيا أنت تخرجت من الجامعة من سنوات عديدة فما الذي ذكرك الآن بالماجستير؟
صوفيا: سَمَعْتُك في برنامج حواري في التليفزيون وقرأت لك مقالات كثيرة فأحببت القانون الدستوري.

لم يسمع حمدي في حياته إطراءً أجمل من ذلك وقال لنفسه هذا عندي أجمل وأفضل من كل شهادات الدنيا وشعر بعد هذا الإطراء الرقيق أن المسافة بينهما لن تكون بعيدة ولا شاقة.

سألها: وهل ستجدين وقتاً للدراسة والإطلاع.
أجابت: في الحقيقة أنا مطلقة منذ عام تقريباً وليس عندي أولاد وعندي وقت فراغ كبير سوف أشغله بالدراسة.

كان يتمنى أن يرتمي فوق صدرها ويصارحها بأنه مثلها يشعر بالوحدة والسأم من كل ما يحيط به في الدنيا. تمنى لو استطاع أن يقول ساعتها ما أحوجني إلى دفئك وسماع صوتك الشجي. أنا مثلك

تماماً يا سيدتي رغم شهرتي وعلمي إلا أنني أشد الناس بؤساً وشقاء.

ثم فرغ من حديث نفسه وتوجه إليها قائلاً:

- نِعْمَ القرار يا مدام صوفيا . ثم سألها: هل تأذنين لي أن أسألك سؤالاً شخصياً إذا كان هذا لا يضايقك ؟

فقالت: أبداً. تفضل.

فقال لها: من هذا المغفل الذي استطاع أن يتخذ قرار بعدك عنه بالطلاق.

فضحكت ضحكة عالية كضحك الأطفال في مرحهم أذابت كل ما بينهما من حرج.

قالت صوفيا: كان رجل أعمال ويغار عليّ غيرة شديدة حمقاء تسببت في خلافات شديدة بيننا وتحولت غيرته إلى شكوك فأصبحت الحياة معه لا تطاق، فطَلَبْتُ الطلاق ووافق على ذلك فأنا التي ابتعدت عنه لا هو .

فقال: إن من يرتبط بك لابد أن يغار عليك من نسمة الجنوب على مُحيَّاك كما تقول أم كلثوم.

فضحكت بدلال وقالت: أنت شاعراً أيضاً يا د.حمدي!

رد عليها: أنت وحي الشعر والشعراء وملهمة الكتاب والأدباء.

ردت صوفيا: أشكرك يا د. حمدي على ذوقك ومجاملتك الرقيقة.
باغتها قائلاً: هل تصدقين يا صوفيا أنني اشعر كأنني أعرفك منذ زمن بعيد ؟ ربما لأن أنفاسك عطر يملأ زهور الدنيا وربما لأن روحك شفافة تحلق فوق رؤوس آلهة الجمال.

ردت بسعادة بالغة: كفى كفى يا دكتور حمدي، كاد حديثك يذهب بعقلي. ثم قفز حمدي وهو المحدث البارع والمحاور الذي لا يباري - قفز قفزة خاطفة. هل تسمحين لي بشرف دعوتك على العشاء الليلة في مكان تحبينه ؟ ترددت صوفيا قليلاً ثم أعلنت موافقتها واشترطت ألا تتأخر عن بيتها.

وانتظرها الساعة العاشرة في إحدى العوامات التي ترقد فوق مياه نيل المنصورة الساحرة، وتناولا طعام العشاء معاً، وحكى كل منهما للآخر حكايته بالتفصيل حتى انتصف الليل. ثم أخذها بسيارته إلى منزلها وودعها وانصرف على موعد بلقاء آخر يتحدد تليفونيا فيما بعد.

حضرت نشوى زوجته الجديدة إليه في مكتبه، وذكَّرته بأن الحمل يكبر في بطنها يوماً بعد يوم، وتخشى افتضاح أمرها أمام الأصدقاء والجيران. إذن لابد من إتمام مراسم الزواج سريعاً.

صارحها بأنه لا يستطيع أن يظهر معها في مراسم الزواج لاعتبارات كثيرة ، وطلب منها أن تحتفل بين أهلها وصديقاتها في المنزل الليلة

الأولى التي تسمى "ليلة الحنة" ثم يبعث إليها السائق في الليلة التالية لكي يأخذها إلى فيلا الساحل الشمالي، وهناك سيلحق بها في نفس الليلة بمجرد وصولها.

وعندما سألته عما يقوله الناس إن لم يروا زوجها، فقال لها: بسيطة أخبريهم أن زوجك مسافر خارج مصر وأنك ستسافرين إليه في الليلة التالية.

وقد نفَّذت نشوى فعلاً ما طُلِب منها ولم تُلْقِ بالاً لامتعاض أهلها. وجاءها السائق في الليلة التالية وصحبها إلى المكان الموعود. ولم يذهب إليها حمدي في تلك الليلة ولا في الليلتين التاليتين وفي كل ليلة يقدم الأعذار والحجج الواهية حتى جن جنونها من الوحدة والإهمال والتعاسة. وسألت نفسها: أي زواج هذا؟ وظلت تلوم نفسها وتعض أصابع الندم على الطريق الذي سلكته، لقد هجرت محمود حبيبها القديم الذي كان يذوب فيها عشقاً وكان يتمنى إشارة منها ليلقي بنفسه في النيل إن شاءت.

مر بها شريط الذكريات المؤلم منذ استسلامها لحمدي وضياع شرفها وعذريتها على يديه بعد أن توسمت فيه الرجل الصادق والمحب المخلص وفوق ذلك فهو الفارس المغوار صاحب الشهرة والمجد ثم طاف بها طائف الحَمْل السِفَاح وكيف دبر حمدي للهروب من تحمل المسئولية لولا أن جيء به مكبلاً مصفداً.

سرحت بخاطرها في الطريقة التي تزوجت بها، وكيف أرغم أهلها حمدي على التقدم لها؟ وهي التي كان الرجال ذوو الشأن والمال يتمنون أن ترضى عن أحدهم، هل لمثلها أن تتزوج بهذه الطريقة الشائنة ثم توجه بصرها إلى بطنها التي تحتوي دلائل الخيبة والخسران المبين والعار الذي يلطخ مدينة بأكملها.

في الليلة الرابعة جاءها حمدي بغتة بغير اتصال لكي تكون مفاجأة سارة، فطارت فرحاً ثم انهمرت الدموع من عينيها مما لاقته في الليالي السالفة من وحدة وخوف ورعب لبقائها بمفردها ليلاً. احتضنها حمدي واعتذر لها بشدة وحمل معها ما أحضره من طعام وشراب إلى المطبخ، ثم دخلا سوياً لإعداد الطعام كما كانا يفعلان في الليالي الخوالي، ثم تناولا الطعام في شرفة الفيلا.

كانت سعادتها بالغة بحضور حمدي وظلت تسأله عن اسم المولود المنتظر إن كان ذكراً واسمها إن كانت أنثى وظلا يتخيران الأسماء ولم يتفقا فلجآ إلى القرعة وكانت تتهمه ضاحكة بأنه يغش في لعبة (ملك أو كتابة) لكي تتوافق مع الاسم الذي يريده، ثم اصطحبها حمدي إلى نزهة بحرية على الشاطئ مشياً على القدمين ثم رجعا إلى الفيلا، وشربا الشاي الدافئ في جو الليل البارد، ثم استلقيا على مقعدين متجاورين في الشرفة، ثم باغتها حمدي بالقول:

- نشوى حبيبتي أريد أن أتحدث إليك في موضوع هام وأرجو أن تسمعيني بإنصات وهدوء حتى النهاية.

دق قلبها بعنف في صدرها فهي تعرفه جيداً وتعرف أن هذه المقدمات تتلوها مصائب جمة.

قالت له: تفضل بسرعة ولا تفسد فرحتي بقدومك.

قال لها: تعرفين أنني أحبك بجنون ولكن إهاناتك لي في اللقاء الأخير تركت في نفس أثراً سيئاً، ولذلك حين حضرت إليَّ لكي تخبريني بخبر الحمل لم أهرب منك كما تصورت وتصور أهلك، ولكنني كنت أحاول أن أتمالك نفسي من هول المفاجأة وألملم شتات كرامتى حتى تهدأ ثائرتي، ولم يدر بخلدي أن أتخلى عنك. فقط أعطيت لنفسي فرصة أخرى فوق الإنذار الشهير ذي الأربع وعشرين ساعة. ولم يكن هذا خيانة لك أو تخلياً عنك في محنة فلماذا تكون المهلة يوماً واحداً ولا تكون يومين أو ثلاثة؟ هكذا فكرتُ وقدرتُ ولكنني فوجئتُ بأهلك يتصرفون معي تصرف قطاع الطرق، وهذه وسيلة حقيرة للزواج لا تحفظ لكل منا كرامته.

وردت عليه نشوى: ولكن ما حدث قد حدث وانتهى. وأنت بالفعل تَخَلَّيْتَ عني بدليل عدم اتصالك بي وإغلاقك لتليفونك المحمول، وهذا إن دلَّ على شئ فإنما يدل على عدم اهتمامك بالمصيبة التي كنت أعيش فيها، وأنك قررتَ أن تنفض يديك منها وتتركني لقدرى إما أن أموت على يد داية أو أموت على يد أهلي.

حمدي: قلت لك أن وقع الأمر عليَّ كان رهيباً وفي هذه المشكلات الرهيبة يحتاج المرء أن يخلو بنفسه ويفكر بهدوء بدون تسرع أو انفعال.

نشوى: وما الداعي لإثارة هذا الحديث الآن ونحن قد أصبحنا بالفعل زوجين متحابين تحت سقف واحد ننتظر طفلنا بعد شهور قليلة؟

حمدي: لن استطيع أبداً أن أتحمل فكرة أنني تزوجتك مرغماً تحت تهديد السلاح فهذه فكرة تحطم معنويات أي رجل في الدنيا ولا تدع له فرصة للتأقلم مع الأوضاع التي تستجد بعدها، كنت أتمنى أن آتي إليك بإرادتي يحملني الشوق والوجد إلى طلب الزواج من أهلك.

نشوى: يبدو أن الجدال معك لن يصل بنا إلى شئ. فأنا أذكرك بتخليك عني وأنت تذكرني بزواجك الإجباري. أتمنى أن تفصح لي عما في رأسك ولا داعي للف والدوران، هات من الآخر كما يقولون .

كانت نشوى ذكية لماحة وليس عصياً عليها أن تخمن ما يدور برأس حمدي مهما جاهد في إخفائه ثم إنها خبرت صاحبنا سنوات طويلة وعايشته وعاشرته وجالسته وتناقشت معه مئات المرات. أدركت أن حضور حمدي هذه الليلة ومعه العشاء والشراب والنزهة على شاطئ البحر وعبارات الغزل والشوق أدركت أن كل ذلك ستار لشئ آخر في رأسه.

حمدي: الحل هو أن تتنازلي لي عن هذه الفيلا. ثم أعطيك المهر المناسب وعند ذلك فقط يمكنني التخلص من شعور القهر والمرارة الذي يلازمني كلما نظرت إليك. كنت تريدين الزواج وها نحن قد تزوجنا سواء بإرادتي أو بإرادة أهلك اللصوص قطاع الطرق،. أما مسألة المهر فما علاقتها بالزواج، لك مهرك كما يقرره الشرع وهو مهر المثل.

نشوى: جميلة منك حكاية "الشرع" هذه. تخرج من فمك مدهشة.
حمدي: ما علينا، ما رأيك فيما عرضت عليك؟

نشوى: هذا القرار ليس في يدي وحدي، وإنما لابد أن أخبر أهلي به. فالعقد معهم وليس معي، ثم أنني مدينة لهم حيث أنقذوني من حالة الضياع والفضيحة نتيجة هروبك من مواجهة ابنك الذي أحمله. ثم أنني لو تنازلت عنها لك ماذا يضمن لي ألا تعاودك الندالة التي هي جزء لا يتجزأ منك أو لؤم الطبع والغدر الذي يسري فيك مسرى الدم في العروق؟
حمدي: لا يصح الطلاق شرعاً وقت الحمل كما يقول الفقهاء. ثم إن الطفل الذي في بطنك سيتم تسجيله باسمي بموجب عقد الزواج الذي معك، ثم لماذا أتركك أو أطلقك طالما تسير الحياة هادئة هانئة كسيرتها الطبيعية بين كل زوجين متفاهمين؟

أدركت نشوى مدى تصميمه وأنه لم يحضر لوصل الود الذي انقطع أو الاطمئنان على زوجته وابنه أو الركون إلى عش الزوجية كما يفعل كل الأزواج. وإنما حضر لكي يسترد الفيلا التي يعشقها هو وأولاده، وهل لو كان قد تصرف معي بمروءة وشرف وتقدم للزواج قبل علم أهلي ترى هل كان سيحدث كل ما تلى ذلك من أحداث؟

هيهات هيهات يا حمدي فأنا لا آمن غدرك ولا أصدق أعذارك ولاأهتم بتأويلاتك. الفيلا هي الشئ الوحيد الذي سيضمن لي أنك بين أصابعي ولن أفرط فيها وعندئذ ردت نشوى بحسم:

- لن أبيع لك شيئاً أو أتنازل لك عن شئ حتى أستشير أهلي الذين أنقذوني منك.

فقام حمدي غاضباً يرغي ويزبد قائلاً: إنكِ مثلهم لم تبحثي عن الزواج أو الستر. ولكنك نشالة مثلهم تماماً تريدين الفيلا ولا تريدين الزوج ولن يجتمع لك الإثنان أيتها الذكية الماهرة إما أنا أو الفيلا. عليك الاختيار. لن أحضر هنا بعد اليوم ولن أكون لك زوجاً فعلاً إلا إذا اتصلت بي وأعلنت الموافقة.

وخرج بعنف راكلاً الباب خلفه واستقل سيارته منطلقاً إلى المنصورة.

في الليلة التالية اتصل حمدي بصوفيا يبثها وجده وهيامه ولهفته على لقائها. واتفقا على اللقاء في المساء في نفس المكان السابق.

جاءت صوفيا بكل جبروت جمالها وسطوة أنوثتها. وجلس معها حمدي ساعتين ثم تناولا العشاء على النيل وهما ينظران إلى انعكاس أضواء طلخا على سطح الموج الهاديء. كان الجو بارداً برودة منعشة، وكان الموج هادئاً خفيفاً، وهمسات صوفيا تدفئ أجواء المنصورة كلها. تركا العوامة وسارا متجاورين فأمسك يدها فوضعتها تحت إبطه مستسلمة استسلام الاسترخاء والسعادة والاطمئنان.

وفي اليوم التالي قرر حمدي استئجار شقة جديدة على النيل، تكون عوضاً عن فيلا الساحل الشمالي حيث يمكن أن يخلو إليها بنفسه ويقرأ ويفكر ويكتب ما شاء من مؤلفات ويشرف على رسائل الدكتوراه.

وفي المساء قرر أن يسير بصحبة صوفيا على شاطئ النيل وأكلا الترمس والذرة المشوية كما يفعل كل عاشقين. وحكى لها عن التصرفات الوضيعة لزوجته نشوى، وكيف استولت على الفيلا هي وأهلها بوقاحة وبلطجة. واشتكى لها من جفاف الحياة مع زبيدة التي لا يكف لسانها عن اللسع بطريقة التورية ، فتتكلم عن شئ وهي تقصد شيئاً آخر. فإذا عرض فيلم في التليفزيون وشاهدت رجلاً يقبل امرأة تقول: هكذا كل الرجال أوساخ. وإذا شاهدت شخصية مرموقة في مسلسل فتقول:(من بره هالله ومن جوه يعلم الله). هكذا عيشتها دائماً، لسانها يلسع صباحاً ومساءً ولا تترك للهدوء طريقاً ينفذ منه إلى الأسرة.

سألته صوفيا: وهل لديها دلائل على خيانتك لها؟
فرد حمدي: إطلاقاً كلها تكهنات ودسائس نسائية تأتيها عبر الهاتف.

علقت صوفيا عليه : نشوى محقة في الاستحواذ عليك، ولكن طالما تمسكت بالفيلا ورفضت المهر المناسب فربما أرادت عقابك على تخليك عنها. وفي هذه الحالة لا يستمر زواج سعيد تحت وطأة العقاب المستمر. فإن اتصلت بك ووافقت على التخلي عن الفيلا وأخذ المهر المناسب فيحق لها عليك الاهتمام بها والعدل معها، وإذا رفضت التنازل عن الفيلا فهي في هذه الحالة قررت التضحية بك من أجل الفيلا وبالتالي فهي لا تستحق منك أي معروف. أما بالنسبة لزبيدة فعليك تبديد شكوكها.

عند ذلك قاطعها: حاولت معها كثيراً، ولكنها تعشق الحياة في نكد وجحيم وإن لم تجد شيئاً يسبب أزمة ما اخترعته اختراعاً، كان أهلها يطلقون عليها "أم بوز".

خففت عنه صوفيا وحكت له بعض المفارقات التي مرت بها. منها أن زوجها السابق أخذها معه ذات يوم لعشاء عمل لكبار رجال الأعمال ليتباحثوا في إتمام إحدى الصفقات الكبرى التي كانت ستدر عليه أموالاً طائلة، ثم أردفت: وحينما دخلنا إلى قاعة الاحتفال لاحظ أن الجميع يحملقون فيَّ، إذا تكلم أحدهم لا يتوجه نحوه وإنما أبصارهم كلها معلقة بي، عندئذ قام طليقى برمي الأطباق في وجوه الجالسين

وتركهم ورجعنا إلى البيت وضاعت الصفقة ووبَّخَني على ارتدائي للفستان الفاتن رغم أنه هو الذي أشار عليَّ به.

ضحك حمدي وقال لها: معه حق فأنت مصدر فتنة لكل من يراك ويشاهد جمالك والمصيبة في ابتسامتك وعينيك حين تتحولان إلى النظر يميناً وشمالاً. عند ذلك تطير منهما السهام القاتلة لكل من حولك.

في الليلة التالية اقترح حمدي على صوفيا أن يصعدا إلى الشقة لإكمال سهرتهما، ووافقت بعد تمنع خفيف وهناك تناولا العشاء، ودارت بينهما الذكريات ودارت الكئوس ودارت العقول.

حين همَّ حمدي بها وبدأ في "الرحلة" وجد نفسه عاجزاً تماماً، لا يقدر على شئ. كانت صورة نشوى وهي تعايره بانعدام فحولته قد سيطرت عليه، وشعر بالخجل الشديد، فاستمر في تقبيلها وهو يتصبب عرقاً. تذكر تلميحات زبيدة له بالسرعة الفائقة، وتذكر أحاديث أزواج أخوات زبيدة عن أنواع العجز، وصار متهماً أمام نفسه بنصيب من العجز، فعجز عن كل شئ.

جلس حمدي على حافة الفراش يمسح عرقه، ويرتشف قطرات من الماء تبلل حلقه الجاف. بينما صوفيا ممددة على الفراش وقد غطت نفسها بملاءة خفيفة ولم تقل شيئاً ولم تفعل شيئاً ولم تعلق بشئ، ظل

يقول متلعثماً بصوت مبحوح: لا أدري ماذا حدث لي؟ أنا لست كذلك! أنا طبيعي صدقيني.

عندئذ أشفقت عليه صوفيا، فقامت ومسحت على وجهه، وطبعت قبلة على خده وقالت له: لا تقلق فربما الإجهاد الجسماني أو النفسي أو الذهني يفعل ذلك كثيراً، وكل الرجال وكل النساء يعلمون أن من يبدأ "رحلة ما" لا ينبغي أن يكون مجهداً أو مكتئباً أو مشتت الأفكار، دع عنك هذه الوساوس فالعمر طويل وأيامنا القادمة كثيرة.

مرت أيام طويلة ينتظر حمدي أن تتصل نشوى به لكي تعلن موافقتها على التخلي عن الفيلا، بينما نشوى تنتظر أن يتخلى حمدي عن فكرته ويرجع إليها. ثم بادرت نشوى بالاتصال به فظن أنها عادت لرشدها ولكنها كانت تسأله:

- هل ستظل تاركاً زوجتك هكذا في آخر الدنيا كالبيت الوقف؟ إنني لا أستطيع أن أتحمل هذا الإهمال والهجر بعد ذلك.
فسألها: قلت لك لن ترى وجهي إلا إذا تصرفت وفق ما قلته لك.
أجابت: لن أتنازل عن شئ وإذا لم تحضر فسوف أرفع عليك دعوى نفقة وأفضحك في المحاكم وربما أقرر رفع قضية طلاق.

سألها: ولماذا ترفعين دعوى طلاق بينما تستطيعين أن تخلعي نفسك صباحاً؟ فقضية الخلع تنتهي أسرع من الطلاق ألف مرة.

أجابتـه: تريـدني أن أطلـب الخلـع لأتنـازل لـك عـن كـل شـئ. الفـيلا والمـؤخر والنفقـة؟ أليس كـذلك؟ لـن تهنـأ بشـئ مـن ذلـك يـا حمدي وبيني وبينك المحاكم من الغد.

رد عليها: اذهبي إلى الجحيم يـا سليلة اللصوص والبلطجيـة. وأغلـق الهاتف.

عاشت نشوى بعدها في جحيم، لا تعرف كيف تقضي أيامهـا ولياليهـا. فهـي تخشـى إن تركـت الفـيلا وذهبـت إلـى المنصـورة فربمـا يحضـر حمدي في غيابها ويستولي على الفيلا ويتركها لآخرين يقيمـون فيهـا ولن تستطيع التصدي لهم وستكون المحكمـة هـي المكـان الـذي تلجـأ إليه في هذه الحالة لاسترداد الفيلا وهذا طريق وعر أولـه همٌّ وآخره سراب. إذن فلتبق في الفيلا وعليها أن تكلـم أهلهـا أن يحضـر بعضـهم للإقامة معها، وأن يتصرفوا بسرعة في إحضـار حارسين للفيلا، ورد عليها أهلها بأنهم سيرسلون إليهـا الحارسين. أمـا الإقامـة معهـا فهذا شئ صعب جداً لانشغال إخوتها ووالدها بأعمالهم، والأم هي مَنْ تقوم بالواجبات المنزلية تجاه أخوتها وأبيها، ثم إنَّ الأم إنْ ذهبت لها فمـاذا عساها أن تفعل مع نشوى؟ هل تقدران على دفع الأذى إن بعث حمدي بأحد ليستولي على الفيلا؟

ووصـل الحارسـان وأفهمتهمـا نشـوى طبيعـة عملهمـا وأشـارت إلـى حجـرة صـغيرة بجـوار البـاب الرئيسـي للفـيلا لكـي يقيمـا فيهـا لـيلاً. تصورت نشوى أن الحارسين سيبددان مخاوفها، ولكنهـا صـارت نهبـاً للخوف والقلق والحزن، وركبها وسواس قديم كانت تعالج منـه وكـان يجعل حياتها جحيماً.

ما أقسى الوحدة؟ وما أتعس فتاة في مقتبل عمرها يهجرها زوجها هكذا فلا هي عذراء ولا هي متزوجة ولا هي مطلقة؟ واشتد الاكتئاب والخوف والقلق وصارت تكره الطعام وتكره الليل الذي يضخم وساوسها.

ثم غادر أحد الحارسين لظروف خاصة به ثم فكرت في فكرة مجنونة. لماذا لا تتصل بمحمود حبيبها القديم؟ إنه يستطيع أن يبدد أحزانها ويشعرها بجمالها القديم ويعوضها عما تلاقيه من إهمال وازدراء وهجر.

واتصلت بالرقم القديم فوجدت الهاتف مغلقاً، فاتصلت بصديقة قديمة لها وشرحت لها كل ما تعانيه، وطلبت منها الاتصال بمحمود بأية طريقة وأن تبلغه برغبة نشوى في الحديث إليه والاعتذار له والتكفير عما حدث منها تجاهه.

ذهبت صديقتها إلى "محمود" وجلست معه وشرحت له رغبة نشوى في لقائه. فانشرح صدره ودق قلبه ولكن الحزن والهم والغم ركبه، وتذكر الطريقة التي هجرته بها، وشرح للصديقة كيف تخلت نشوى عنه، وذكر لها الآلام النفسية الرهيبة التي لاقاها وعزوفه عن المذاكرة وامتناعه عن حضور المحاضرات حتى كان مستقبله مهدداً. وكانت أسرته لا تعرف ماذا حدث له فتصوروا أنه مريض بداء عضال، وكانت أمه لا تكف عن البكاء. أفبعد هذا تريد نشوى الاعتذار؟ هذا شئ مستحيل.

جاهدت الوسيطة أن تخفف عن محمود حدة ذكريات الماضي، وذكرت له أن نشوى تعاني أكثر مما عانى وهي في محنة حقيقية وتريد من محمود أن يقف بجوارها ويساعدها. سكت محمود قليلاً ثم قال لها: أليست هي التي وضعت نفسها في هذا الموقف العصيب؟

ردت الصديقة: كل الناس تخطئ يا أستاذ محمود، ولا داعي لأن تعاقبها وهي في أشد حالات الندم والحزن، وليس من المروءة أن تتخلى عنها فهي لم تذكر أحداً آخر في خضم هذه الآلام إلا أنت. ثم همت بالإنصراف وتركت له تليفونها وتليفون نشوى وأخذت منه رقمه الجديد.وبعد ساعات اتصلت نشوى بمحمود وهي تبكي.

نشوى باكية بحرقة: أين أنت يا محمود؟ أنا في أشد حالات اليأس و الحزن، والندم يعصر قلبي. لا تتركني وحيدة يا محمود.

شعر محمود بأحزانها ودق قلبه عند سماع صوتها وآلمته دموعها التي شعر بها لأول مرة منذ تعارفا.

محمود: "حاضر" يا نشوى، اهدئي ولن أتخلى عنك، أرجوك أن تهدئي وتمسحي دموعك، واطلبي مني ما تشائين.
نشوى: لا أطلب شيئاً. أريد أن تكون بجانبي فقط.

محمود: "حاضر" ولكن كيف سارت الأمور إلى ما سارت إليه؟

شرحت لـه نشوى، ولـم تـذكر حكايـة الحمـل السفاح طبعاً. قالـت أنـها تزوجته لأنه أبهرها ببريقه الاجتماعي وثرائه و جاهه وشهرته، ولما تم الزواج مكث معها أياماً ثم هجرها منذ أسابيع ولا يفكر في الاتصال بها وهي تفكر في الطلاق. طمأنها محمود ووعدها بأن يتصل بها مساءً ليكون عنده وقت طويل للحديث معها.

وفي المساء اتصل بها وشعر أن حبها لم ينطفئ في قلبه يوماً. شعر كأن قصتهما معاً لم تنقطع إلا أياماً معدودات، وأن ما مر كان سحابة صيف سرعان ما انقشعت. نسي هجرها وإهمالها وغلظتها في التعامل معه وعدم الرد عليه منذ أن عرفت د. حمدي، نسي أيامه السوداء ولياليه الحزينة، ونسي آلام أسرته ودموع أمه.

اتصال مع نشوى قلب حياته وأشعل فيها البهجة والسعادة والأمل بعدما ظن أنه أصبح إنساناً آلياً يتحرك للعمل وللمنزل بدون أية مشاعر. كان الحب والأمل في مستقبل باهر والتفاؤل بقادم الأيام وحب الحياة والبهجة ، كل تلك مفردات غادرت حياته حينما غادرتها نشوى. وها هي تعود جميعها من جديد.

توالت الاتصالات وتتابعت بين نشوى ومحمود وكان لابد بعد هذه الاتصالات أن يشتعل الحب ومعه الشوق أشد مما كان، فلابد من الاتفاق على اللقاء ولم يكن هناك مكان أنسب وأهدأ من فيلا الساحل الشمالي.

ذهب محمود إليها تحمله أشواقه وآماله في مستقبل أكثر سعادة معها، وارتمت نشوى في أحضانه وذاب هو بين أحضانها وطالت السهرة وطال الحب والشوق فحدث بينهما ما ليس منه بد. عوّضا الحرمان القديم والعذاب الطويل بما ليس مسموحاً لهما به.

وكانت روعة الحب القديم بينهما واشتعاله المتجدد ولأنه لم يلمس المنطقة الحرام أسباباً جعلت الحب صامداً متجدداً، ولكنهما الآن قد قطفا من الشجرة المحرمة. قررت نشوى عقاب حمدي في شرفه وقرر محمود عقاب نشوى في شرفها.

ثم اتصلت بها صديقتها تسأل عن أخبارها مع محمود فشكرتها بشدة وقالت لها: أنا لا أعرف كيف أرد لك هذا المعروف.
فردت صديقتها: تستطيعين رد المعروف لو أردتِ يا حبيبتي.
نشوى: وكيف ذلك؟
الصديقة: لي حبيب سيتقدم لخطبتي، ولا أجد مكاناً استطيع أن أقابله فيه فهل يمكن أن تستضيفينا بعض يوم؟

فرحبت نشوى بحضورهما وسافرا إليها في اليوم التالي، فوجدا محمود لا يزال عندها، وسهر الجميع ثم اختلى كل حبيب بحبيبته في حجرة منفصلة. ثم اقترحت الصديقة أن يحضر الأصدقاء جميعاً آخر الأسبوع ليحتفلوا معاً بزواج نشوى وإقامتها في فيلا فاخرة. وقالت لها الصديقة:

- إن أصدقاءك جميعاً يسألون عنك ويتعجبون من عدم إقامتك حفلاً للزفاف ولن يكون هناك أجمل رد على تساؤلاتهم من استدعائهم إلى هذه الجنة الرائعة ليروا بأنفسهم العز والهناء والجاه الذي وصلت إليه.

فسألتها نشوى: ولكن حمدي لن يكون موجوداً؟
فقالت لها: سنقول لهم أنه مسافر في مؤتمر علمي بالخارج.
وفي نهاية الأسبوع حضر الجميع وتعالت أصوات الموسيقى والرقص والغناء وأكل الجميع وشربوا على نفقة محمود واستمرت السهرة إلى الصباح ثم كالعادة خلا كل صاحبيْن إلى ركن بعيد.

وعند الظهيرة ركب الجميع سياراتهم ورجعوا إلى المنصورة. وسأل محمود نفسه عما رآه. كان يشعر بسعادة وثقة بالنفس بعد عودة الحب والوصال بينه وبين نشوى ولكنه لم يشعر في داخله براحة أو طمأنينة أو رضا عما عايشه في اليومين الماضيين.

كيف تُحَوِّل نشوى فيلتها إلى ماخور يمارس فيه كل أنواع المحرمات من خمور ومخدرات وزنا ودعارة؟ إنها لمصيبة أن تكون تلك نهاية نشوى أجمل فتيات الكلية التي كان الجميع يتسابقون ويتنافسون لنيل شرف الحديث إليها. وهل الشعور بالوحدة والكآبة يصلح مبرراً لكل هذه الموبقات؟

وسأل نفسه سؤالاً محدداً: هل يرضى بالزواج من نشوى إذا طلقها حمدي؟ فكانت الإجابة قاطعة وحاسمة بالنفي.

أما نشوى فكانت تشعر بارتياح شديد لأنها نجحت في تبديد وحدتها وطرد كآبتها وتجديد الاتصال بصديقاتها. وكان هناك شعور داخلي بالنصر. نعم، النصر على حمدي الذي سلبها شرفها ثم رماها في الصحراء الغربية (وإن كانت فيلا راقية) وحيدة شريدة لا يؤنسها إلا أصوات الذئاب الضالة التي تهيم في الليل من جنوب الصحراء إلى شمال الوادي.

ولما استيقظ محمود في اليوم التالي طلب من نفسه تفسيراً لإجابته القاطعة في اليوم السابق باستحالة الزواج من نشوى. كانت إجابته أيضاً قاطعة وموجزة: (لقد خانتني نشوى مع حمدي وهجرتني ثم خانت حمدي معي) لا مكان لها في مستقبل أيامي وسوف أتسلى بقضاء أوقات جميلة معها.

وحينما عبرت على رأسه فكرة أن تكون نشوى قد خانته مع شخص آخر قبل الاتصال به انتابه الغضب والغيرة وتعجب من موقفه الذي لا تفسير له كيف يغار عليها وهو لا يتمنى بل يرفض الزواج منها؟

أليس هذا شعوراً محيراً؟ ، ثم سكنت نفسه بعد أن تذكر أن الغيرة ليس لها علاقة حتمية بالزواج. فالغيورون يشعرون بالغيرة حتى

على العاشقات الخليلات وليس الزوجات فحسب. بل ربما غار الإنسان على عشيقته أكثر من غيرته على زوجته.

كان حمدي كلما التقى صوفيا يشعر بخجل شديد يجتهد أن يداريه. واستشار أحد أصدقائه دون أن يذكر له تفاصيل محددة يستطيع أن يستنتج منها شيئاً، فنصحه بأقراص الفياجرا التي تحدث عنها الكثيرون ويشيدون بمفعولها الأكيد.

وقرر حمدي أن يعيد الكرَّة مرة أخرى في شقته واستدعى صوفيا للسهر معه وحاول أن يطرد كل الأفكار السيئة من ذهنه وتناول قرصاً من الأقراص التي أعطاها له صديقه.

وجلس بجوار صوفيا ممدداً على السرير وتناول الويسكي وسرح في حكايات كثيرة مع صوفيا أضفت جواً منقطع الصلة عن الحاضر الذي يدور خارج الشقة ويحمل من الهموم والأعباء الكثير.

وبدأ حمدي الرحلة بتقبيلها وضمها إليه وبدأت الرحلة وانتهت كسابقتها بالخسران المبين. قام حمدي من فراشه وغسل وجهه وارتدى ملابسه دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة ولما حاولت صوفيا أن تسأله عن ارتداء ملابسه هكذا بدون كلمة لم يرد. وقامت إليه تربت على كتفه فجلس على أقرب مقعد مستغرقاً في البكاء، كانت صوفيا تعلم بحقيقة بكائه دون أن تسأله، وقد أشفقت عليه رغم شعورها هي أيضاً بخيبة الأمل مرتين.

داعبته وخففت عنه وقالت له إن رجالاً كثيرين يأخذون أقراص الفياجرا فسألها عنها كان لم يسمع عنها من قبل وتشبث بهذا الحل علَّه يكون ورقة التوت الأخيرة التي تستر عورته.

التقى حمدي وصوفيا في اليوم التالى ولم يجرؤ على الاقتراب من شقته أو شقتها. كانت المضاجع تسبب له ألماً شديداً، وتُذكِّره بعجزه المفاجئ وفشله مرتين. وقرر ألا يجرب مرة أخرى على الأقل في الأمد المنظور.

واشتكى لصوفيا من اضطرابه وهمومه وضيق صدره ومله من الحياة. فشعرت أنه مهاجر بسرعة خاطفة إلى الأمراض النفسية بأنواعها المختلفة، ورغم أنه لم يكن لها أي دخل بحالة العجز التى شعر بها إلاَّ أنها لم تستطع أن تتخلص بشئ من وخز الضمير، فحمدي كان قبلها سليماً كما قال وبدأ العجز معها أي أنها إن لم تكن مسئولة، فهي مرافقة له في رحلة الفشل.

وخفف من شعورها بألم الضمير شكوكها في أن يكون حمدي قبلها عنيناً وأنه يكذب عليها بادعائه القدرة والفحولة.

ولكن كيف يهيم بها ويسمعها قصائد الغزل ويدعوها لشقته وهو عاجز؟ فقالت لنفسها أن هناك أناساً كثيرين لا يجيدون إلا فن الكلام، ويتصورون أن المرأة الجميلة قد تكون حلاً لمشكلتهم، وحينما

يستحوذ الواحد منهم على هذه المرأة المثيرة يكتشف أن علاجه ليس عندها وإنما في مكان آخر.

كانت أفكار حمدي متسارعة تدق رأسه بعنف. وكانت أفكار صوفيا يغلفها حزن خفيف مرة حين تشعر بجزء من المسئولية، ومرة أخرى حين تتخيل حمدي عاجزاً قبل لقائها.

وطلبت منه صوفيا أن يخفف عن نفسه عناء الإجهاد النفسي والذهني واقترحت عليه أن يأخذ إجازة من كل شئ وراقت له الفكرة. فقال لها: سوف أحصل على أجازة وسوف نسافر سوياً إلى مكان جميل لا تتوقعينه. فسألت عنه.

فقال لها: ألمانيا؛ إنني اعرفها جيداً لأنني أقمت بها فترة طويلة أثناء دراستي للدكتوراه.

سافر حمدي بصحبة صوفيا إلى ألمانيا وبالتحديد إلى مدينة فرانكفورت وأقام معها في الفندق الأثري العتيد "فرانكفورت هوف".

كانت ألمانيا ساحرة بجوها الجميل الذي يغلفه ضباب خفيف طوال اليوم، وفي الفندق الجميل رأت صوفيا أجمل آيات المعمار القديم. كان فندقاً على الطريقة الأثرية القديمة، أسقف الحجرات عالية تصل إلى خمسة أمتار، والشباك طوله متران، واللوحات والديكور كلها من عصور قديمة وكذلك المفروشات عليها نقوش العصور الوسطى.

استمتعت صوفيا بالإقامة في الفندق. وكانت تقف أمام الشباك طويلاً تراقب المارة في الميدان العتيق. ثم تجول بها في شوارع فرانكفورت وكانت سعيدة بالجو الأوربي الهادئ الذي لا يستفز الوجدان الشرقي كما يحدث في أمريكا.

واستأجر سيارة وذهب بها إلى قرية "فسبادن"، تلك القرية الرائعة التي يقصدها كل السياح من كل الدنيا. رأت مزارعها الخضراء الخلابة وأشجارها السامقة التي تساقطت أوراقها فصارت كالأذرع العارية ممددة في الفضاء.

ومر بها على المستشفى الشهير (D.K.D) التي كان يذهب إليها ليجري بعض الفحوصات الطبية. وكان جمال المستشفى ودقة نظامها وحسن تنسيقها مثار دهشة صوفيا، وشرح لها حمدي أن الألمان اهتموا بهذه المستشفى اهتماماً بالغاً حتى صارت مكاناً مفضلاً للأثرياء العرب الذين يفضلون أن يعالجوا في ألمانيا.

وكان الألمان على درجة عالية من الفطنة حينما وجدوا أن أغلب رواد المستشفى من الأثرياء العرب، فأقاموا بجوار المستشفى فندقاً فارهاً على الطريقة الحديثة وليس على طريقة فندق (فرانكفورت هوف). وكانت الفتيات الألمانيات بائعات الهوى يتجولن بين أجنحة الفندق. وقال لها أنه أثناء أقامته بهذا الفندق سمع طرقاً خفيفة على باب الحجرة فقام يفتح الباب فوجد فتاة جميلة تسأله: هل طلبت فتاة

تمارس معها الحب؟ فأجابها بالنفي، ورأى نفس الفتاة في المساء تسير تحت جناح ثري عربي.

كانت (فسبادن) بحق عروس القرى الألمانية فيها جمال الطبيعة ونقاء الهواء والبساطة الشديدة والطرق النظيفة للتجول ليلاً.
ثم رجع بها إلى فرانكفورت فمر بها على مركز للساونا، وسألها: هل تعرفين ما يدور هنا. فقالت له: ساونا أكيد. قال لها إن أحد أصدقائه دخله متصوراً أنه مكان للساونا وحينما دخل المكان وجد رجلاً يستقبل الداخلين ويطلب إليه أن يخلع ملابسه، وناوله فوطه فخلع الزميل ملابسه وترك الشورت.

فأشار إليه الرجل: تماماً (Completely) . فتحير صاحبنا وقال له: كيف؟ قال له مرة أخرى: (Completely) ، وأشار إلى الفوطة التي بيده أن يستر بها عورته فخلع صاحبنا الشورت وربط الفوطة حول وسطه.

ثم سار أمامه المشرف على المكان إلى الداخل، فوجد أقواماً كثيرين كلهم مثله يرتدون الفوطة فقط، وأمام كل منهم امرأة ترتدي فوطة أيضاً وجسمها عارٍ تماماً، ويتبادلان الكلمات الملتهبة، حتى إذا اطمأنت المرأة إلى ارتفاع حرارة الزبون صعدت به لأعلى لكي يمارسا الحب. وفي البداية لابد من دفع الأجر كاملاً إذ أن حماس الزبون يكون جارفاً في البداية، أما إذا انتهت الرحلة فربما يساومها

في أجرها. و في النهاية ينزل صاحبنا ويترك الفوطة ويرتدي ملابسه مرة أخرى.

ثم دخل بها إلى "كازينو" وسألها ما هذا قالت له: كازينو مثل الذي عندنا. قال لها: إن المقصود بالكازينو هنا هو مكان لعب القمار. ودخل معها، فطلب منه الواقف على الباب ترك المعطف والموبايل، وسأله إن كان معهما موبايل آخر فليتركاه.

دخل الاثنان إلى الداخل وأخرج حمدي مجموعة من (الماركات) الألمانية واستبدلها بورقات بلاستيكية كقطع الدومينو إلا أنها اقل سمكاً. ثم يجلس مع الجالسين حول دائرة مرقمة تدور بسرعة، ويضع المقامر أوراقه على رقم يحدده وإذا توقفت الدائرة عند رقم ما يأخذ الفائز الذي توقع الرقم كل ما على المنضدة من أوراق ثم يستبدلها بدولارات أو ماركات عند خروجه. ولكن الخاسر يستمر في اللعب دائماً طمعاً في تعويض ما خسره، وربما يعوض ما خسره، وربما يخسر كل شئ وهذه سُنَّة القمار في كل مكان.

ثم طار بها في شوارع فرانكفورت، وسار بالسيارة من شارع إلى شارع. لاحظت صوفيا أن الطريق بدأ يضيق ورغم ذلك السيارات الراجعة والقادمة تسير بسهولة ويُسْر فسألته عن السبب، فأجابها أن الطرق هنا ضيقة وليست متسعة بطريقة خرافية مثل دول الخليج، ولكن الحوادث هنا قليلة جداً نظراً لاحترام السائقين لقواعد المرور والالتزام بها بدقة شديدة حتى لو لم يكن رجل المرور موجوداً. وعلق

على ذلك بأن هذه ثقافة شعب وذكَّرها بالرقم المخزي أن مصر أكثر دولة في العالم في حوادث السيارات.

ولاحظت صوفيا أن الطريق يضيق ولكنه يرتفع ويتلوى فسألت حمدي فقال لها: إننا ندور حول جبل. وظلت السيارة تعلو وتعلو وصارت الأنوار بعيدة وهي تشعر بالخوف من ارتفاع الطريق وعدم وجود حواجز على جانبيه وحينما صعدت إلى قمة الجبل كان الظلام دامساً، وظنت صوفيا أنها في آخر مكان في العالم. ولكن حمدي ترك السيارة وأغلقها، ثم اصطحبها مترجلين بضع خطوات ثم وجدت أمامها مكاناً مكتوب عليه دوتشي هيل Dutch Hill وسألته: أين أنت ذاهب؟ فقال لها: انتظري، ثم فتح الباب ودخل. فوجدت عشرات الرجال والنساء يرقصون ويغنون في حماس منقطع النظير والدفء ينبعث من الداخل ورائحة الطعام تختلط بأنفاس الموجودين وعبير الكحوليات. كانت تظن أنها وصلت إلى مكان قفْر فإذا بها في أكثر أماكن ألمانيا حركة وضجيجاً وصياحاً وموسيقى.

وفي اليوم التالي ذهب بها إلى مطعم تركي سمعا فيه أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم وتناولا طعاماً مصرياً خالصاً. أمضى حمدي وصوفيا ثلاثة أيام من أجمل أيامهما ثم عادا إلى مصر، إلى المنصورة عروس النيل الخالدة.

كانت الشهور تتوالى حتى وصلنا إلى شهر أكتوبر عام ٢٠١٠. وفي هذا العام أجريت انتخابات مجلس الشعب، ذلك المجلس الذي كان

مكلفاً في دورته الجديدة أن يقر التوريث ويسلم مصر كالعزبة إلى مالكها الجديد جمال مبارك.

كان حسني مبارك قد تقدم به العمر وشعر بالوهن وضعفت قواه وكان يقضي جل أوقاته في شرم الشيخ بعيداً عن الضجيج وبلايا الحكم، وطمعاً في استنشاق هواء نظيف جاف.

كان يعلم أن مسألة التوريث ليست سهلة ولن تمر على شعب مصر مرور الكرام، ولذلك كان يتلكأ فيها. وسارت الهمهمات والإشاعات بين الناس أن سيدة القصر تُصِرُّ على أن يتم التوريث بأسرع ما يمكن. وكان الرجل العجوز يتردد متوجساً من عواقب هذه الكارثة.

ولكن الحرس الجديد من شباب الحزب الوطني كان قد استعد لكل شئ فجعل معركة مجلس الشعب في ٢٠١٠ هي المعركة الحاسمة للسيطرة على برلمان البلاد. وكانت انتخابات مجلس الشعب هي المسمار الأخير في نعش النظام فقد أدارها الحرس الجديد بكل غباء ورعونة، إذ لم يسمح لشخص واحد من المحسوبين على المعارضة بدخول البرلمان.

وتم التزوير عياناً وفي وضح النهار، كانت هناك دوائر كاملة يتم إغلاقها بالجنازير في الأماكن التي تخضع لسيطرة المعارضة. وتم تبديل صناديق خاوية بصناديق أخرى، وتم طرد مندوبي المعارضة من اللجان، وعند فرز الأصوات كانت الأرقام تذهب من اليمين إلى

الشمال والعكس، وبعد تجميع الأصوات تختفي الكشوف وتظهر كشوف أخرى بأرقام أخرى وحسابات أخرى، ليقوم القضاة بإعلان الفائز وكان الفائزون جميعاً من الحزب الوطني.

كان الحرس القديم الذي يتميز بالدهاء والمكر والخديعة يعلم أن الذي يحدث هو بداية الكارثة، وأن أصول الفهم الصحيح - فضلاً عن أصول لعبة السياسة الماكرة- تقتضي أن تترك بعض المقاعد للمعارضين ذراً للرماد في العيون كما حدث في عام ٢٠٠٥. فالسماح بدخول نسبة قليلة من رموز المعارضة لن يؤثر على نسبة إقرار القوانين لقلة عددهم، وسوف يعطي للداخل والخارج صورة خادعة عن الديمقراطية البرلمانية في مصر حينما يسمع الجميع صياح رجال المعارضة داخل البرلمان.

كانت الممارسات الأمنية قد بلغت حداً من الفجر والعهر لم تصله اشد النظم القمعية عتواً في أكثر البلدان انحطاطاً. كان القبض العشوائي والاعتقال والمحاكمات العسكرية شيئاً هيناً أمام التعذيب البشع الذي يتم على أيدي الشرطة داخل السجون، بل وخارجها. وظل الناس يتعجبون لهذا الضابط الذي جر أحد المهندسين من سيارته أمام زوجته وأولاده، وظل يركله في صدره وفي بطنه حتى سقط على الأرض، وبعد سقوطه استمر في ركله في كل مكان بجسمه، وتبادل الجميع كل ما حدث على الموبايل.

ثم تذكر الناس ما حدث لخالد سعيد الشاب السكندري الذي أخذوه من مقهى الإنترنت، وظل أمناء الشرطة يدقون رأسه في رخام سلم العمارة المجاورة حتى تهشم رأسه ولفظ أنفاسه، وأخذوه ورموه في أحد المستشفيات ثم ادعوا كذباً أن موته من لفافة بانجو في حلقه. وحينما أنشئت صفحة "كلنا خالد سعيد" التف حولها مئات الآلاف من الشباب وتداول الشباب على الفيس بوك وتويتر ويوتيوب كل ما لديهم من فظاعات الداخلية فقرروا أن ينزلوا للاحتجاج في عيد الشرطة التالي ٢٥ يناير ٢٠١١.

واتسع نطاق الدعوة بصورة مذهلة وبدأ الشباب يقسمون أنفسهم إلى مجموعات صغيرة ثم مجموعات أكبر ثم خلايا عنقودية وكل مجموعة اتفقت على طريقة المشاركة والشارع الذي ستسلكه للوصول لميدان التحرير.اضطر الشباب الثائر النقي أن يعتمد على نفسه بعد أن فقد الثقة في كل الزعماء والقيادات التي تدعي المعارضة.
ذهبوا إلى د. محمد البرادعي الذي توسموا فيه أن يكون قائدهم وزعيمهم فقال لهم بصراحة أنه لن ينزل إلى ميدان التحرير إلا إذا اجتمع على الأقل مائة ألف شاب وأنه في ٢٥ يناير سيكون خارج البلاد.

ذهبوا للإخوان المسلمين فقالوا أنهم لن ينزلوا الميدان لأنهم لا يذهبون إلى مسيرة لم يتم التنسيق معهم بشأنها وكان هذا رد الإخوان على كل مسيرة يُدْعَوْن إليها.

وسُئِل رئيس حزب التجمع فقال أنه لا يستطيع أن يعكر صفو الشرطة ويفسد فرحتهم في عيدهم ٢٥ يناير، وأبدى الوفد رفضه المشاركة في مظاهرة حاشدة ضد نظام السيد الرئيس رمز الأمة .

وسُئِل عمرو موسى عن إمكانية ترشحه أمام مبارك فنفى ذلك، وقال أن الرئيس إذا قرر الترشح فلا يصح أن يترشح أمامه فالعين لا تعلو على الحاجب. ونفض الشباب أيديهم من الرموز و قرروا الاعتماد على أنفسهم.

لم يعر النظام الحاكم كل هذه الاستعدادات اهتماماً لأنهم في نظره (شوية عيال) كما قال رئيس حزب التجمع أيضا بنفس التعبير. كان وزير الداخلية آنذاك يطمئن الرئيس بأنه يستطيع أن يقبض على هؤلاء جميعاً في ساعة من نهار. وكانت خبرة "مبارك" بمظاهرات مصر تدعوه للاطمئنان فكل المظاهرات التي خرجت كانت هزيلة ولا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بها.

ووقعت الواقعة التي اهتز لها عرش العالم العربي بل والعالم أجمع فقد صفعت شرطية شاباً تونسياً على وجهه في سيدى بوزيد في تونس، كان الشاب محمد بوعزيزي خريج الجامعة يحمل على عربة كارو بعض الخضروات، ولم يجد الشاب أمام هذا الظلم والجبروت وصعوبة الحياة إلا أن يسكب البنزين على نفسه ويشعل النار فيها وبعدها لقي حتفه.

ثار أهل بوزيد وشاركتهم أغلب المدن التونسية وانضم إليهم الاتحاد التونسي للشغل بكل ماله من نفوذ وقوة وسطوة في المجتمع، وأصبحت تونس كلها ناراً موقدة كالبركان. ظل "زين العابدين بن علي" ذلك الطاغية المتوحش يتوسل إلى الشعب التونسي أن يتركه يصلح أمور الدولة بقولته الشهيرة (الآن فهمتكم) ولكن الشعب التونسي ظل مرابطاً بالميادين والشوارع، وأعلن الإضراب العام، ولم تستطع الشرطة أن تفعل شيئاً أمام هذا الطوفان من الجماهير. وذهب زين العابدين لزيارة بوعزيزي في المستشفى، وألقى خطاباً آخر يدغدغ فيه مشاعر التونسيين.

ولكن الرصاصة كانت قد انطلقت ولا سبيل إلى رجوعها. وفي ليلة من ليالي ديسمبر ٢٠١٠ هرب زين العابدين بن علي وزوجته بطائرتهما الخاصة. ولأول مرة تطير طائرة في الفضاء تحمل رئيس جمهورية ولا تعرف وجهتها. توسل زين العابدين إلى رؤساء كثيرين عرب وأجانب، والكل رفض استقباله.

وظلت الطائرة تدور في الفضاء ونزلت إلى قبرص لتتزود بالوقود، ثم عاودت الطيران والتوسل حتى سمحت له السعودية باللجوء السياسي. وذهب إليها بن علي مطروداً مقهوراً تشيعه اللعنات من كل الأحرار في العالم.

كانت ثورة تونس هي الوقود الحقيقي لثورة يناير مصر ومن لا يعترف بهذه الحقيقة لا يفهم جيداً مسار الأحداث الكبرى ولا موقعها

من حركة التاريخ. كانت مجموعات الشباب تتلاقى على الفيس بوك وعلى النوادي والمقاهي، وكانوا يخططون فعلاً وعندهم الإخلاص والعزيمة.

لكن ما فعلته ثورة تونس كان أكبر من ذلك بكثير فهي التي أقنعت الشباب أنهم يستطيعون مواجهة الآلة الأمنية الجهنمية في مصر. فلم تكن القبضة الأمنية في تونس اقل بطشاً من نظيرتها في مصر ولم يكن النظام الحديدي المتوحش في تونس أقل توحشاً من النظام المصري. وها هو الشباب التونسي يتلقى ضربات الأمن بصدوره العارية إلا من قوة الإيمان ومضاء العزيمة.

كان د.حمدي من القلائل الذين أدركوا خطورة ما يقوم به الشباب وذلك لاختلاطه وانغماسه الشديد بينهم. والسبب الآخر أنه رغم سلوكه الشخصي إلا أنه كان ذا بصيرة واعية ونظر بعيد، يسبر أغوار الأحداث ويتنبأ بما لا يستطيع الكثيرون التنبؤ به. وسبق أن حذر على الفضائيات من مغبة الغضب المكتوم في النفوس، وتوقع أنه إذا لم يحدث تغيير جوهري فإن زلزالاً هائلاً سيحدث في مصر.

كان حمدي ثاقب النظر فحاول الاتصال بالشباب مذكِّراً إياهم بهجومه المستمر على النظام وهو الذي كان يمهد للثورة. ولكن الشباب لفظوه كما لفظوا كثيرين من المثقفين الخائنين الذين حاولوا الصعود على أكتافهم.

ظل حمدي يتودد لهم عن طريق المجموعة الخاصة به. وشكر الله أنه لم يتمكن من الالتحاق بسفينة النظام التي يقفز منها الجميع حالياً. ولكن وساطات المجموعة الخاصة لم تَلْقَ أذناً صاغية لدى الشاب النقي الذي آثر أن يطرد من صفوفه كل المحتالين والمخادعين والطبالين وحاملي المباخر والراقصين على كل الحبال. ولكن الأغبياء من سدنة النظام ظلوا يرددون مقولتهم التافهة أن "مصر ليست تونس و تونس ليست مصر".

ولم ييأس حمدي من تحقيق أحلامه فقد أيقن أن الثورة قادمة لا محالة وأنه ساعتها يستطيع أن يدعي أمام النظام الجديد أنه كان صاحب الصوت الأعلى في فضح النظام، ومكتبات الفضائيات تحتوي على السيديهات المسجلة لهجومه الكاسح على سياسات السلف البائد. وقرر حمدي أن ينتظر حتى يركب موجة النظام الجديد كما سيفعل كل الأفاعي والحواة في كل زمان ومكان.

في ليلة من ليالي ديسمبر ٢٠١٠ رجع حمدي إلى منزله فوجد ابنه "أحمد" المحاسب في انتظاره وطلب من والده أن يتحدث إليه في أمر ما ، ثم لخص أحمد الموضوع ببساطة في أنه مر عليه وقت طويل منذ تقدم لخطبة فتاته فقال له والده : أعلم ذلك.

فقال لوالده: وهم يريدون أن أكون جاداً في الاستعداد للزواج بالبحث عن شقة.

وطلب من والده أن يمده بجزء من ثمن الشقة لأنه منذ عمل في مكتب محاسبة خاص لا يستطيع أن يدخر شيئاً ذا بال.

رد عليه حمدي قائلاً: يا بني أريد منك أن تعتمد على نفسك كالرجال لم يقتنع أحمد وظل يشرح لوالده ظروفه المادية وأن المرتب الذي يتقاضاه من مكتب المحاسبة لن يوفر له شقة في الأجل المنظور. وأراد حمدي أن ينهي المناقشة فرفض رفضاً قاطعاً، وقال له: إذن استأجر شقة.

فقال له أحمد: إن الإيجار سوف يبتلع مرتبي من مكتب المحاسبة ثم أن الإيجار الجديد يجعل الشاب يترنح من شقة إلى أخرى بانتهاء العقد.

خرج أحمد من لقاء والده كسير القلب مهيض الجناح تترقرق الدموع في عينيه. ثم ذهب لأخواته المتزوجات وحكى لهن ما حدث وحكي لوالدته طبعاً. وفي المساء التف الجميع حول والدهم وفهم حمدي الحكاية بسهولة. وظل الجميع يتوددون إليه ويقبِّلونه ويدعون له بالصحة وطول العمر وموفور الرزق، ونبهوا والدهم إلى أن الرجال أمثاله الذين بنوا مستقبلهم بسواعدهم ليس لهم وجود هذه الأيام لصعوبة الحياة على الشباب وقلة خبرتهم بها.

وطال الحديث وطال التوسل وفي النهاية طلب منهم حمدي أن يمهلوه وقتاً لكي يتدبر أموره المالية وأوحي لهم هذا الرد برفض محتمل.

في الليلة التالية قرر أحمد أن يذهب بأصدقائه إلى فيلا الساحل الشمالي لكي يغيروا الجو ويقضوا بضعة أيام كما كانوا يفعلون بين الحين والآخر في السنوات الماضية.

وفوجئ أحمد بحارس يمنعه من الدخول بفظاظة وغلظة، وحاول أحمد أن يفهم من الحارس الموضوع شارحاً له أنه صاحب الفيلا لأنه ابن الدكتور حمدي حسين صاحب الفيلا. فدفعه الحارس قائلاً الفيلا ملك السيدة نشوى زوجة الدكتور حمدي حسين فعلاً ولكنها طلبت مني ألا يدخل أحد إلا بإذنها. فطلب أحمد منه أن يدعه يقابل السيدة نشوى فرفض قائلاً له: عندها ضيوف، وكان أحمد يسمع صوت الموسيقى الصاخبة من الداخل.

شعر أحمد بهوان شديد واتصل بوالده يسأله عما سمعه فقال له والده "تعال وأنا أفهمك الحكاية".

فلم يتحرك أحمد من مكانه وهاج: يا بابا الحارس يقول إنها ملك لامرأة اسمها نشوى وهي زوجتك.

قال له والده: يا بني الحكاية أنني قمت بتأجير الفيلا لأنني في ضائقة مادية لمدة شهرين بعشرة آلاف جنيه وسوف ينتهي الشهران قريباً وتعود الفيلا كما كانت وتستطيع أن تذهب إليها وقتما تشاء.

شعر حمدي لأول مرة بأن ذكاءه قد خانه وأنه لم يحسن التصرف في أمر الفيلا كان عليه أن يخبر أسرته بقصة ما يخترعها خياله فليس معنى أنهم لا يذهبون إلى الفيلا إلا بصحبته ألا يتسلل أحدهم ذات يوم إليها وهو حدث متوقع ويخطر على أي عقل.

لم يصدق أحمد ما قاله والده لأنه أكثر الناس دراية به ويعلم نبرة الاضطراب من حديث والده عن نبرة الصدق الحاسم الحاد. رجع أحمد من رحلته ولم يذكر شيئاً لوالدته أو أخواته ولكن تفكيره هداه إلى قرار شيطاني.

انتهز أحمد فرصة نوم والده ذات ليلة وأخذ مفتاح السيارة وأخرجها من جراج المنزل وانطلق بها إلى كهربائي سيارات. كان قد اتفق معه على تركيب جهاز GBS بالسيارة في مكان سري، ويكون الجهاز من النوع المزود بميكروفون للتجسس ويتم إخفاء الميكروفون في مكان سري لا يمكن لأحد العثور عليه.

كان هذا الجهاز يُمَكِّن أحمد عن طريق شريحة الموبايل أن يتابع خط سير السيارة طوال اليوم على خرائط جوجل، وإذا توقفت في مكان ما

يستطيع أن يعرف مكانها من الخرائط بكل دقة داخل مصر بأكملها، ثم أن الميكروفون يمكّنه من سماع كل ما يدور بالسيارة من أحاديث بدقة بالغة.

كان أحمد يريد أن يعرف حقيقة الفيلا، وهل باعها والده لهذه السيدة؟ وهل هي زوجته فعلاً؟ وهل يدفع رجل إلى زوجته فيلا؟ وما هي حقيقة الإشاعات التي تملأ المدينة عن غزوات والده مع النساء؟
عاد أحمد بالسيارة وتركها كما هي بالجراج ووضع المفتاح في مكانه وتم اختبار جهاز GBS بنجاح فقد ظهر موقع السيارة على خريطة جوجل بالجراج هكذا بكل سهولة ومن قبل جرب الميكروفون حينما ترك الكهربائي يتحدث داخل السيارة.

في اليوم التالي أخبر أحمد أخاه طالب الطب وأختيه وأمه بما فعله في الليلة الماضية. فشتمه أخوه طالب الطب وهدده بإفشاء سره وعاتبته أختاه على سوء صنيعه فليس هكذا يعامل الأبناء أباءهم مهما حدث بينهم من فتور أو سوء تفاهم أما والدته فلم تعلق بشئ.

في اليوم التالي صعدت قوة من الشرطة مدججة بالسلاح إلى منزل الدكتور حمدي وألقت القبض عليه وعلى أحمد واقتادتهما إلى قسم أول المنصورة وحاولا في ذهول وهلع أن يسألا عن السبب فأخبروهما أنهما سيعرفان ذلك عند رئيس المباحث.

دخل د.حمدي وابنه إلى غرفة رئيس المباحث ومفتش مباحث المديرية ورئيس مباحث مارينا حيث أغلقوا الباب وبدأوا التحقيق مع د.حمدي أولاً بعد أن تركوا ابنه في غرفة الحجز.

س: إسمك وسنك وعملك وعنوانك؟
ج: حمدي.

س: اشرح لنا تفاصيل واقعة العراك مع نشوى التي انتهت بقتلها.
حمدي مذهولاً: قتلها، متى وكيف حدث ذلك؟ ثم راح يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

المحقق: دكتور حمدي لا داعي للف والدوران. لقد عرفنا كل شئ عرفنا أن المشاكل بينكما بلا حدود وأنك لم تنم عندها منذ زواجك منها ليلة واحدة، وفي إحدى الليالي ارتفع صياحكما كما ذكر الجيران. كما علمنا من الأهل أنك تنازلت عن الفيلا لها. يا دكتور حمدي لا تضيع وقتك ووقتنا معك.

د.حمدي: أقسم بالله العظيم أن هذا لم يحدث، فأنا لم أرها منذ شهرين ثم أنني عرفت من ابني أن هناك حارساً تستطيعون أن تواجهوني به إن كان شاهدني في تلك الليلة.
المحقق: الحارس لم يشاهد أحداً والجريمة تمت الساعة الخامسة صباحاً وكان الحارس نائماً والذي قام بقتلها - وهو أنت - قفز من فوق سور الفيلا.

حمدي: وما مصلحتي في قتل زوجتي؟
المحقق: نحن الذين نسأل وأنت تجيب، أما إن أردنا الرد عليك فمصلحتك أن تحصل على الفيلا ثانية لأنك أحد ورثتها ثم لكي تنتقم لشرفك بعد أن حولت الفيلا إلى دار دعارة.

حمدي: دار دعارة!! أستغفر الله العظيم - هكذا فعلت زوجتي لعنها الله؟
المحقق: هأنت تعلن دون أن تشعر بحقيقة مشاعرك نحوها.

حمدي: أنا لا أعرف شيئاً لأنني منقطع عنها كما قلت لكم منذ شهرين.

المحقق: أين كنت ليلة الحادثة؛ ليلة أمس؟
حمدي: كنت مع أولادي بالمنزل.

المحقق: هل لديك شهود على رؤيتك بالمنزل أثناء دخولك أو خروجك؟
حمدي: لا اعرف إن كان أحد شاهدني أم لا.

المحقق: وما قولك في طلبك منها التنازل عن الفيلا؟
حمدي: حدث هذا فعلاً فقد عرضت عليها أن تقبل المهر المناسب ولا داعي للفيلا فليس هناك أحد يدفع فيلا لكي يتزوج امرأة.

المحقق: وما سبب بيعك للفيلا لها أصلاً طالما أنك تعرف أن ذلك ليس أمراً طبيعياً؟

حمدي: لأن أهلها ضغطوا علي وهددوني إن لم أفعل ذلك .

المحقق: ولماذا يهددك أهلها وأنت تريد الزواج من ابنتهم؟

حمدي: لأنني تورطت معها في علاقة قبل الزواج وأفهموني أنها حامل منذ ثلاثة شهر واختطفوني في سيارتهم وأشهروا السلاح حتى وقعت لهم على شيك بمبلغ ٥ ملايين جنيه وأعطوني الشيك في اليوم التالي بعد أن أعطيتهم عقد بيع الفيلا وبعد عقد القران.

المحقق: إذن العلاقة من البداية فيها كل عناصر الضغط والكراهية وهذا دفعك لقتلها؟

حمدي: لم يحدث ذلك.

المحقق: إنك بإنكارك هذا تجعل مهمة إنقاذك من حبل المشنقة عسيراً. يمكنك أن تشرح لنا ظروف قتلها لأنك وجدتها في الفيلا مع أحد الرجال، وهذا سيجعل خروجك من القضية في منتهى السهولة، فتحرياتنا تؤكد أن الفيلا كانت تدار للدعارة، وسيتطابق هذا مع اعترافك بأنك كنت تدافع عن شرفك. هذا أفضل لك ألف مرة من الإنكار التام الذي سينتهي بتوجيه تهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد لخلافك معها على الفيلا وهذا سيقودك حتماً إلى غرفة الإعدام .

حمدي: ولكنني فعلا لم اقتلها.

obeikandl.com

المحقق: على العموم سوف تظهر الأدلة الجنائية والطب الشرعي وشهادة الشهود كذب كلامك.

وأقفل المحضر وتم تحويله إلى النيابة في اليوم التالي، واستقبله وكيل النيابة بأدب واحترام لأن حمدى كان أحد أساتذته، وطلب له القهوة وسأله إن كان يريد إفطاراً؟ ثم بدأ معه التحقيق ولم يذكر حمدي شيئاً جديداً عما قاله أمام الشرطة وانسحب وكيل النيابة إلى غرفة ملحقة ليستفسر عن القرار في هذه الحالة فطلب منه المحامي العام حبس حمدي أربعة أيام على ذمة التحقيق. وبدأت الشرطة تحقيقاتها مع أحمد.

س: ما اسمك؟

ج: أحمد حمدي حسين.

س: ما سنك وعملك؟

ج: ٢٤ سنة - محاسب في مكتب خاص (الأستاذ مراد إسماعيل).

س: ما معلوماتك عن الحادث؟

ج: لا أعلم شيئاً كل ما حدث أنني فوجئت اليوم صباحاً بأن الشرطة حضرت وألقت القبض علي وعلى والدي. وعلمت من خارج المكتب هنا أن هناك جريمة قتل.

س: ألا تعلم أن نشوى زوجة والدك قد قُتِلَتْ في فيلا الساحل الشمالي التي يمتلكها والدك؟

ج: لا أعلم شيئاً.

س: ألم تذهب إلى الفيلا بعد زواج والدك وإقامة نشوى بها؟

ج: ذهبت مرة واحدة ومعي بعض أصدقائي وحاولت الدخول، فمنعني حارس وقال لي: ممنوع دخولك لأن السيدة نشوى مالكة الفيلا لم تذكر لنا اسمك ضمن المسموح لهم بالدخول. وطلبت مقابلتها فقال الحارس: ممنوع لأن عندها ضيوف.

س: ولهذا قررت الانتقام منها لإهانتك؟

ج: لا أعرف شيئاً إطلاقاً عن قتلها ولم أذهب إلى الفيلا بعدها.

س: ألم يضايقك زواج والدك منها باعتبارها ضرة لوالدتك؟

ج: طبعاً هذا حق والدي. الشرع يبيح له أربع زوجات ولا يحق لي أنا الابن أن يحدد لوالده ما يفعله وما لا يفعله.

س: الم تشعر بالإهانة لطردك من الفيلا؟

ج: طبعاً شعرت بالإهانة أمام زملائي وأصدقائي ولكن ذلك لا يدفعني لارتكاب فعل شنيع كالقتل.

س: ألم تشعر بالحزن لضياع الفيلا من أسرتك؟

ج: طبعاً شعرت ولكن والدي أكد لي أنها مستأجرة لبعض الوقت فاستراحت نفسي لقوله.

س: ألم تقل لك القتيلة عند زيارتك لها أنها زوجة والدك؟
ج: لم تحدثني السيدة نشوى ولكن الذي ذكر ذلك هو الحارس.

س: ألم تحدث مشادة بينك وبين الحارس؟
ج: كان يعاملني بعنف ولكنني أدركت أنه عبد المأمور ينفذ ما يملى عليه من أوامر.

س: أين كنت بالأمس نهاراً وليلاً؟
ج: بالنهار كنت مع زملائي وأصدقائي وليلاً كنت في المنزل.

س: ما اسم أصدقائك الذين كنت معهم وما عناوينهم؟
ج: مصطفى علي وأحمد مرتضى والسيد مختار وهذه عناوينهم.

س: هل شاهدك أحد لدى دخولك منزلك ليلاً أو خروجك منه صباحاً؟
ج: لا أتذكر أن أحداً شاهدني فأنا لا أنظر لكل من حولي أثناء سيري.
و أنهى التحقيق وتم تحويله إلى النيابة التي لم يضف شيئاً جديداً في أقواله أمامها وتم حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق.
كان الطبيب الشرعي قد أرسل تقريره المبدئي، وفيه قال أنه ناظر الجثة الساعة الحادية عشرة صباحاً، وأنها لسيدة عمرها حوالي ٢٦ عاماً، وأنها تلقت طعنة نافذة بالصدر من الناحية اليسرى اخترقت القلب وبها جرح قطعي طوله ١٢سم بالرقبة تسبب في قطع الشرايين والأوردة الرئيسية بالرقبة وقطع القصبة الهوائية. وأن سبب الوفاة هو هبوط حاد بالدورة الدموية والقلب والتنفس. وتم تشريحها

فوجدت السيدة حبلى في جنين عمره خمسة شهور وجد ميتاً داخل الرحم.

وتوجد آثار مقاومة بجسمها عبارة عن سحجات وكدمات حول معصميها وحول رقبتها وظهرها. وكانت القتيلة ترتدي قميص نوم وحمالة صدر وشورت داخلي ولا يوجد آثار لسوائل منوية بالمهبل أو حوله. وتم أخذ عينات من المعدة والكبد والمخ والأمعاء لفحصها وتحليل ما بها من مواد. وقد وجدت آثار دماء على مقاعد الأنتريه وتم تحليلها واتضح أن بعضها ينتمي لدم القتيلة وبعض الدماء الأخرى لشخص آخر ذكر فصيلته (AB) والتركيب الوراثي 46xy .

وجاء تقرير الأدلة الجنائية بأن فحص الشقة أثبت أنه لم يتم اقتحامها أو كسر الباب مما يرجح أن الداخل كان معروفا لدى القتيلة. وتم رفع البصمات من على كوبين للعصير في الأنتريه ووجدت بصمات على أحدهما للقتيلة وبصمات أخرى على الكوب الآخر تم الاحتفاظ بها وتم رفع البصمات من أماكن متعددة بالشقة.
وتم تفتيش شقة القتيلة بمعرفة المباحث فوجدوا دولاب الملابس كما هو وأدراج المكتب والأدراج أسفل المرآة كما هي ووجد الموبايل الخاص بها ومبالغ مالية كثيرة في الأدراج قدرت بحوالي خمسة آلاف جنيه مما يرجح أن الجريمة لم تتم بدافع السرقة.

وتم فحص الشبابيك من الداخل والخارج ووجدت سليمة لا اثر لكسر أو عنف بها. وتم تفتيش حديقة الفيلا بالكامل وحجرة الحارس فلم يتم

العثور على شئ سوى بقعتين من الدماء على الطرقة المؤدية لباب الشقة وتم تحليل البقعتين ووجدت من نفس دماء الشخص الآخر. وتم استدعاء الحارس.

س: اسمك وسنك وعنوانك؟

ج: أجاب.

س: ما عملك بالفيلا؟

ج: حراسة الفيلا ليلاً ونهاراً.

س: وأين كنت تبيت ليلة أمس؟

ج: كنت أبيت بحجرتي بجوار البوابة الرئيسية.

س: لماذا كنت نائماً طالما أن وظيفتك هي حراسة الفيلا؟

ج : يا بيه لا استطيع أن أظل مستيقظاً طوال الأربع وعشرين ساعة، والقتيلة تعلم أنني أبيت ليلاً خلف البوابة الرئيسية. وإذا أراد شخص ما الدخول لابد أن يطرق على البوابة المغلقة بإحكام، وأنا الذي أقوم بفتح البوابة له إذا وافقت السيدة نشوى - رحمها الله.

س: ألم تشعر بشيء أو صوت يوقظك أثناء وقوع الحادث الساعة الخامسة صباحاً؟

ج: إطلاقاً يا بيه.

obeikandl.com

س: لا اثر لأي عنف بالباب معنى هذا أن من دخل إليها تعرفه فهل عندك تفسير لذلك؟

ج: أنا لم أفتح لأحد يا سعادة البيه هذه الليلة.

س: إذن كيف دخل هذا الرجل بغير كسر الباب؟

ج: لا أعرف يا بيه.

س: هل كان عندها أحد في الليلة السابقة؟

ج: كان هناك بعض الزيارات من رجال ونساء لا أعرفهم.

س: وكيف فتحت لهم؟

ج: هم كلموها على الموبايل فنادت عليَّ وقالت افتح للموجودين بالخارج.

س: كم كان عددهم؟

ج: ثلاثة رجال وسيدتين.

س: هل خرجوا جميعاً في هذه الليلة؟

ج: خرجوا فعلاً ، ولكنني في الظلام لم أتبين عددهم حيث كنت نائماً أثناء فترة وجودهم بالفيلا.

obeikandl.com

س: هل كانوا يستقلون سيارة واحدة أم أكثر وما نوعها؟
ج: سيارة واحدة سوداء يا بيه ولا أعرف النوع لأنني لا أفهم في أنواع السيارات.

س: من الذي عرض عليك العمل بالفيلا؟
ج: الحاج إبراهيم العشري والدها والأستاذ ذكي أخوها.

س: وهل ذهبوا معك لمعاينة المكان؟
ج: كتبوا لي العنوان وأرسلوني ووصلت إلى الفيلا بسهولة.
س: الم تلتق بهم بعد ذلك؟
ج: متلعثماً، ثم تنحنح. الحقيقة يا بيه الكذب خيبة. أنا كنت ناوي أترك العمل في المخروبة دي اللي اسمها الفيلا وذهبت إلى والدها وإلى الأستاذ ذكي وقلت لهم أنني سوف أترك العمل.

س: لماذا؟
ج: يا بيه أنا لست (ديوساً) أو (معرصاً). أنا رجل صعيدي يا بيه ولم تحتمل رجولتي ولا أعصابي ما كنت أشاهده. ناس داخلون وناس خارجون وموسيقى ورقص ومسخرة.

س: وهل حكيت ذلك للحاج إبراهيم وأخيها زكي؟
ج: طبعاً يا بيه ولكنهم حلفوني ألا أترك حراستها قبل أن يدبروا حارساً آخر ونظراً للعيش والملح اضطررت للانتظار.

obeikandl.com

س: وماذا لاحظت على والدها وأخيها؟

ج: كانا في منتهى الغضب وفوجئوا بما قلت وكانت النار تغلي في صدورهم من تنفسهم السريع واحمرار وجوههم.

س: الم تقل ذلك لإنسان آخر؟

ج: مستحيل يا بيه فهذه أسرار بيوت ولا يصح أن أفضح بنات الناس.

س: هل تذكر أسماء من كان يزورها؟

ج: بعضهم أذكرهم مثل الأستاذ محمود وآخرين لا أعلمهم.

س: من محمود هذا؟

ج: واحد كان يزورها كثيراً ، وهو في مثل سنها تقريباً ، وكانت تشعر بمودة شديدة له لأنني كنت ألاحظ فرحتها الشديدة بقدومه.

س: وهل كان يبيت عندها؟

ج: كثيراً.

س: صف لنا شكله.

ج: متوسط الطول يميل إلى النحافة شعره أسود وله شارب خفيف ويرتدي دائما قميصاً مفتوحاً وبنطلون جينز وكوتشي أبيض هذا كل ما أذكره عنه.

obeikandl.com

س: هل زارها محمود في الأيام التي تسبق الحادثة؟
ج: كان عندها منذ يومين يا باشا.

س: هل يمكن أن يبيت عندها محمود يومين أو ثلاثة؟
ج: ويمكن أكثر يا بيه.

س: ألم تشعر بوجوده في اليوم السابق مباشرة للحادث؟
ج: لم أشعر بوجوده لأنني نادراً ما أدخل إلى داخل الشقة، فهي دائماً تأخذ كل ما معي من مأكولات من على الباب.

س: ألم تشاهد أحداً يحوم حول الفيلا في اليومين السابقين؟
ج: لم أشاهد أحداً حيث أن إقامتي داخل الفيلا ولا أخرج إلا حين تطلب الست مني شيئاً من الخارج.

س: هل أنت متأكد أن أحداً لم يزرها في اليوم السابق؟
ج: نعم متأكد.

وتم تحويل الحارس إلى النيابة واستمعت لنفس الأقوال وقررت حبسه أيضاً أربعة أيام على ذمة التحقيق.

وتم القبض على محمود بعد الاهتداء إليه من خلال زملاء نشوى القدامى الذين انقطعت علاقاتها بهم منذ سنوات، فذكروا أنها كانت

تحب محمود زميلها وكان يحبها، وذكروا أوصافاً مطابقة للأوصاف التي ذكرها الحارس.

وسيق محمود إلى المحققين. كان محمود قد علم بخبر مقتل نشوى وظهر عليه الألم والحزن وأطلق لحيته حتى صار شكله أقرب إلى المتشردين.

- **اسمك؟**
- **محمود عبد الهادي البرعي.**
- **سنك وعملك؟**

- **أربع وعشرون عاماً وأعمل مندوب دعاية ومبيعات لإحدى شركات الأغذية.**

-

س: ماذا تعرف عن الحادث؟

ج: بكى محمود وقال أنه عرف خبر مصرعها من الصحف. ومن كلام الناس علمت أنها ذبحت في شقتها وأنكم تحاولون الوصول إلى الجاني.

س: ماذا كانت علاقتك بالقتيلة بالتفصيل؟

ج: كانت نشوى زميلتي في الكلية، وتعرفنا وشعر كل منا بحب شديد تجاه الآخر وتعاهدنا على الخطوبة في العام الأخير من الدراسة ثم

obeikandl.com

فترة، كانت في تلك الفترة تتردد على الدكتور حمدي حسين مع بعض زملائها في اللقاءات التي كان يعقدها مع بعض الطلاب، ولاحظت تغيرها ناحيتي ثم علمت بعد ذلك أنها ارتبطت مع الدكتور حمدي وشاهدتهما بنفسي في أحد المرات.

س: أين شاهدتهما؟

ج: كانت الأقاويل تتردد بقوة عن علاقتهما ولم اصدق ذلك، فقررت مراقبتها ذات يوم وانتظرت أمام منزلها ورأيتها تنزل وتركب معه السيارة، ثم علمت بعد ذلك أنهما تزوجا.

س: وماذا بعد؟

ج: اتصلت بي بعد ذلك وقالت أن زوجها هجرها ولا يحضر إليها، وأنها تجلس وحيدة تبكي، وطلبت مني الوقوف بجانبها حتى تعبر الأزمة. فبدأت أتصل بها وأسمعها وأحثها على عدم الاستسلام للقهر والاكتئاب. وبعد ذلك تقابلنا في الفيلا الخاصة بها ومكثت معها عدة ساعات ثم تكررت زياراتي لها أحياناً بمفردي وأحياناً أكون ضمن الشلة لكي نسهر سوياً.

س: هل حدثت بينكما علاقة مثل ما يحدث بين الأزواج؟

ج: نعم حدث ذلك وأطرق برأسه إلى أسفل.

س: وهل تكرر ذلك؟

ج: نعم تكرر مرات كثيرة.

obeikandl.com

س: وهل كانت الشلة رجالاً أم نساء أم خليطاً؟
ج: كانت الشلة رجالاً ونساءً كل واحد منهم مرتبط بواحدة وكانوا يحضرون للسهرة والعشاء ثم يخلو كل عشيق بعشيقته.

س: الم تشعر بالألم حين تركتك نشوى إلى حمدي؟
ج: قضيت أياماً سوداء علمها عند ربي ولكنني تماسكت وذاكرت ونجحت وتخرجت.

س: ألم تفكر في الانتقام منها جزاء لما فعلته معك؟
ج: لماذا أنتقم منها بعد كل هذه الفترة؟ وهي قبل رحيلها رحمها الله كانت في أحضاني كل يوم. أين الدافع للانتقام يا سيدي؟

س: ألم تشعر أنها أضاعت نفسها وأضاعت حبك لها وانحرفت إلى طريق الجنس والدعارة؟
ج: يا سيدي لست مسئولاً عما آلت إليه أحوالها. فقد كنت أحبها حباً عذرياً وأنا طالب، وأحببتها أيضاً حب الأزواج لزوجاتهم بعد ذلك. وكل إنسان مسئول عن اختياراته، ولكنني رغم ذلك اشعر بالأسى لنهاية أجمل وأذكى طالبة بالدفعة.

س: ألم يستيقظ فيك مارد الانتقام ذات يوم؟
ج: إطلاقاً يا سيدي.

س: أين كنت ليلة الحادث وقبلها بأيام؟
ج: كنت في الإسكندرية في مهمة خاصة بعملي منذ أربعة أيام.

س: قرر الحارس أنك كنت عندها منذ يومين وأنك أحياناً كثيرة كنت تبيت عندها. فما قولك؟
ج: الحارس يكذب أو لا يتذكر. فأنا لم أذهب إليها منذ أسبوع.
وتم استدعاء الحارس ومواجهته بمحمود. وتم سؤال الحارس أمام محمود.

المحقق: هل رأيت هذا الشخص من قبل؟
الحارس: نعم يا باشا هو محمود الذي حدثتك عنه.

المحقق: متى كانت آخر مرة حضر فيها محمود إلى القتيلة؟
الحارس: الست الله يرحمها ماتت يوم الاثنين وهو كان عندها ليلة السبت. أنا أذكر هذا جيداً.

وقف محمود وقال للحارس :أنت كذاب لم يحدث ذلك. فعنفه الضابط وطلب منه أن يصمت ولا يفتح فمه إلا بإذن وإلا كسر عظامه.

س: هل كان محمود يبيت عند نشوى أكثر من ليلة؟
ج: نعم يا باشا كان يبيت ليلة وليلتين وأكثر.

وأغلق التحقيق وتم تحويل محمود إلى النيابة التي أمرت بحبسه أربعة أيام.

***

obeikandl.com

تم استدعاء إبراهيم والد نشوى وأخيها زكي وأخيها فريد. وبدأ التحقيق مع إبراهيم والد نشوى.

س: اسمك وسنك وعنوانك؟
ج: اسمي إبراهيم مصطفى العشري، وسني ٦٥ سنة، وعنواني: المنصورة ميدان الشيخ حسنين شارع الميرغني منزل رقم ٦.

س: ما عملك؟
ج: تاجر حبوب.

س: هل يعمل أولادك معك في نفس المهنة؟
ج: أولادي زكي وفريد معي في المهنة أما "على" فسافر إلى الخارج.
س: متى سافر "علي"؟
ج: سافر منذ أسبوع إلى السعودية للعمل هناك مدرساً.

س: وهل كان "على" يساعدك في عملك قبل سفره؟
ج: طبعاً كان يعاونني مع أخوته.

س: وما اسم المكتب الذي حصل منه على عقد العمل والتأشيرة؟
ج: مكتب (القاهرة لإلحاق العمالة بالخارج).

obeikandl.com

س: وما عنوان المكتب؟
ج: ٩ شارع الخليفة بالعجوزة.

س: وهل سافر إلى المطار وحده أم ذهبتم معه لتودعوه؟
ج: ذهبنا جميعاً ولم نتركه إلا بعد أن ركب الطائرة.

س: هل كنتم في سيارة خاصة أم ركبتم سيارة أجرة؟
ج: طلبنا من الأسطى محمود شيحة السائق لكي يوصله وحضر بسيارته البيجو ٧ راكب، وذهبنا معه إلى المطار، ورجعنا معه بعد أن سافر "علي" بالسلامة.

س: على أية شركة للطيران سافر "علي"؟
ج: لا أعرف يا بيه وأعتقد أنها شركة مصر للطيران.
س: وما رقم الرحلة؟
ج: لا اذكر ولكن الطائرة انطلقت الساعة العاشرة صباحاً.

س: هل حدثك حارس الفيلا بسلوك ابنتك واشتكى لك ذلك؟
ج: سلوك ابنتي زى الفل واشرف من الشرف يتقطع لسان من يتكلم عنها كلمة واحدة.

س: هل حدثك الحارس عن ضيقه من كثرة المترددين على الفيلا؟
ج: يا باشا هؤلاء أصدقاؤها وزملاؤها كانوا يذهبون إليها ليؤنسوا وحدتها لأن الدكتور حمدي كان مشغولاً باستمرار.

obeikandl.com

س: ألم يقل لك الحارس أنه شعر بالاشمئزاز من حفلات الرقص والموسيقى الصاخبة ومنظر السيدات مع الرجال؟

ج: وماذا يفعل هؤلاء الشباب إذا التقوا معاً؟ لابد أنهم سيغنون ويرقصون مثل كل الشباب في سنهم.

س: ألم يقل لك الحارس أنه مشمئز من تصرفاتهم؟

ج: هو حارس عبيط استقدمناه من الصعيد لكي نوفر له لقمة عيش و لكنه متخلف يتصور أن احتفال الأصدقاء من رجال ونساء معاً شئ معيب، وهذه طبيعة أهل البندر لم يتعود عليها هذا الحارس الصعيدي الجحش الذي صار يتحدث في شرف ابنتنا وحسابه قادم إن شاء الله.

س: ما السبب الذي تعتقد أن ابنتك قتلت من أجله؟

ج: واحد ابن حرام حاول أن يسرق فلوسها أو مصوغاتها أو حاول الاعتداء على شرفها فقاومته فهي ست بعشرة رجال.

س: ولكن أبواب الشقة وشبابيكها سليمة وليس فيها أي أثر للعنف والمجوهرات والفلوس والموبايل واللاب توب كل ذلك موجود، إذن لم يكن الدافع للقتل هو السرقة؟

ج: لا أعرف السبب يا باشا. أولاد الحرام كثيرون والبانجو والترمادول ضيع عقول الشباب.

س: صرخ المحقق فيه. مالك يا رجل أنت؟ أقول لك أن الأبواب والشبابيك سليمة ، هل سيدخل إليها مدمن البانجو من تحت الأرض؟ الشخص الذي قتلها كانت تعرفه وفتحت له بنفسها.
ج: لا أعرف يا بيه.

س: هل تعتقد أن ابنتك حافظت على شرفك وشرف أخوتها؟
ج: ليس هناك أشرف من نشوى رحمها الله.

س: وما حكاية الطفل الذي كان في بطنها وعمره خمسة شهور وهي متزوجة من شهرين فقط؟
ج: كانت متزوجة من أستاذها د. حمدي عرفياً، وهذا زواج على سنة الله ورسوله ولكننا غضبنا منها وطلبنا منها أن يتقدم حمدي لإشهار زواجها ولما تلكأ هددناه فحضر وتم الزواج، فما في بطنها هو ابنها وابن الدكتور حمدي على سنة الله ورسوله.

شرح المحقق وأدرك أن هذا الداهية وراءه كثير، إذ يبدو أنه أعد العدة لكل الاحتمالات وجهز الإجابات لكل الأسئلة المتوقعة. ثم بعث المحقق بالرجل إلى النيابة حيث تم حبسه أيضاً أربعة أيام ثم تم استدعاء فريد الأخ الأكبر لنشوى وأفاد بكل ما أفاد به والده حرفياً لا زيادة ولا نقصان وتم حبسه أيضاً.

بعثت الأدلة الجنائية بمعلومات جديدة مفادها أن البصمات التي وجدت على الكوب المجاور لكوب نشوى لا تتطابق مع أي شخص من المقبوض عليهم، وأن عينات الدماء التي وجدت مختلطة مع عينات دماء نشوى لا تنتمي لأحد الموجودين في السجن.

وتم سماع شهادة الجيران فأفادوا بأن الفيلا كانت هادئة محترمة في كل السنوات السابقة حين كان حمدي يحضر إليها بصحبة أولاده، ولكنهم لم يروه هذا العام وظنوا أنه باع الفيلا أو أجرها لسكان آخرين. وقد أكد الجميع أنهم لم يروا الدكتور حمدي أو ابنه أحمد الذي يعرفونه جيداً من السنوات السابقة، أكدوا أنهم لم يشاهدوهما في الفترة الأخيرة.

وبعث الطبيب الشرعي بتقرير جديد أثبت فيه أن أمعاء و كبد القتيلة ليست بها أي آثار للتسمم وأن أظافرها وجد بها شعرة لا تنتمي لأحد من المقبوض عليهم ولذلك قررت النيابة الإفراج مؤقتاً عن حمدي وأحمد وتجديد الحبس للباقين.

خرج حمدي مع أحمد ليستنشقا هواء الحرية، وكان حمدي بالذكاء الذي يشعره أن ابنه مر بتجربة عصيبة بسببه. ولذلك ركبا تاكسي واحتضنه أبوه في التاكسي، وأخذه إلى مطعم (الصباحي) في شارع قناة السويس بالمنصورة وطلب له أفخر أنواع الطعام.

وقال له أنه باع الفيلا لأهل نشوى بمبلغ خيالي وأنه اتفق مع آخرين على شراء الفيلا الخاصة بهم، وهي أجمل من الفيلا القديمة وأقرب كثيراً إلى البحر، ووعده بأنه سيأخذ الأسرة كلها لمعاينتها الأسبوع القادم. ووعد حمدي ابنه بأنه سيعطيه مائة ألف جنيه ليلاً ثم مائة ألف أخرى بعد أسبوع لكي يحجز الشقة التي يريدها. وحدثه عن نشوى، وقال أنه لم يكن يعرف وضاعة أهلها وانحطاط خلقها، وأن الله قد أراحه منها وبعد الغداء اشترى له بدلة وقميصاً وحذاء ورابطة عنق جديدة لزوم الفرح.

وكان كل ذلك كفيلاً لمحو آثار الليالي الكئيبة التي عاشها أحمد في السجن بجوار والده. وذهبا معاً إلى منزل الأسرة فحمد الموجودون الله على سلامتهما ثم لووا رءوسهم بعيداً عن حمدي صاحب المصائب. زواج من سيدة لعوب، وضياع الفيلا، وسجن، وسوء سمعه، وكل ذلك من والدهم مصدر الفخر لديهم.

تولى أحمد الدفاع عن والده وشرح لهم حكاية الفيلا القديمة التي بيعت بثمن خرافي، والفيلا الجديدة قريبة من البحر مباشرة، وأن ما حدث كان غمة انتهت برحيل تلك السيدة التي خدع فيها الوالد كما ينخدع كثير من الناس.

كان الجميع مذهولين من تصدي أحمد للدفاع عن والده وسألوه على انفراد عن السبب فقال لهم أن والده أعطاه ثمن الشقة ووعده بإعطاء المزيد، وأنه قرر أن يرجع إلى أسرته، ويود أن يدخل على قلوبهم

السعادة بالفيلا الجديدة فماذا تنتظرون أكثر من ذلك؟ بدأ الهدوء يسود البيت. وحملهم ليلاً د. حمدي في سيارته إلى الساحل الشمالي وأشار إلى الفيلا الجديدة وهي بالفعل ساحرة وأجمل من سابقتها بكل تأكيد ثم دعاهم إلى العشاء في مارينا في مطعم كانوا يأكلون فيه سوياً وشعرالجميع بالسعادة وعادوا إلى منزلهم بالمنصورة فرحين إلا صاحبة "البوز" الشهير.

كان رجال المباحث في سباق مع الزمن لكشف غموض الجريمة البشعة، و كان أول ما فعلوه أن سألوا عن "عليّ" أخى نشوى الذي ذهب إلى السعودية. وأكد الجميع في الحي أنه سافر منذ أسبوع فعلاً. وذهبت مجموعة من رجال المباحث إلى مكتب (القاهرة لإلحاق العاملين بالخارج) للسؤال عن (علي إبراهيم مصطفى العشري) وكانت المفاجأة المذهلة أن مثل هذا الاسم لم يتردد عليهم ولم يحصل منهم على عقد عمل أو تأشيرة. فذهب وفد آخر من رجال المباحث إلى المطار واطلعوا على كشوف كل المسافرين إلى السعودية على متن كل الرحلات المصرية والأجنبية في ذلك اليوم، واكتشفوا أن "علي" لم يسافر إلى السعودية على متن أية طائرة في ذلك اليوم.

واتجه فريق منهم إلى الإدارة العامة للجوازات للتحري عن خط سير (علي) فعلموا أنه لم يغادر البلاد. وتم استدعاء السائق الذي ذهب به إلى المطار وأكد أنه فعلاً ذهب به إلى المطار، ودخل إلى صالة الانتظار، وعندئذ رجع السائق بسيارته مع عائلة "عليّ".

انتشرت العيون في كل مكان داخل المنصورة وخارجها بحثاً عن علي إبراهيم مصطفى العشري، وتم توزيع نشرة سرية على الكمائن وأقسام الشرطة مصحوبة بصورة شخصية له.وأثناء هذا المجهود المضني من رجال المباحث ثم العثور على "علي" متخفياً ومتوجهاً إلى منزل إحدى أخواته في دمياط.

وبدأ التحقيق معه في دمياط، ثم تم ترحيله إلى المنصورة، وتم أخذ بصماته وعينة دم منه في بداية الأمر. ولكن "علي" ظل صامتاً لم يتكلم ولم يرد على أي سؤال ولما بدأ التهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور تكلم "علي" وقال إن عليه ثأراً وأنه كان يحاول الهروب من الثأر بادعائه السفر إلى السعودية.

ثم جاءت الطامة الكبرى بأن البصمات ليست بصماته وعينة الدم ليست من دمه. وهنا أسقط في يدى رجال المباحث الذين تصوروا أن القضية أوشكت على الانتهاء، فإذا بها تبدأ من أول السطر وتم حبس "علي" في حبس انفرادي، وقرر الضباط إعطاء أنفسهم إجازة يوماً كاملاً لكي يستعيدوا لياقتهم الذهنية والنفسية.

وفي هذا اليوم حدث أخطر تحول في القضية. إذ طلب "علي" من فتحة باب السجن الضيقة من (الشاويش) الواقف أن يقول لرئيس المباحث أن "علياً" لديه كلام جديد.

وطار الشاويش إلى مكتب رئيس المباحث، واتصل به في منزله، وأبلغه بالخبر. فجاء المحققون جميعاً من منازلهم ليستمعوا إلى قول "علي".

س: ماذا تريد أن تقول يا أستاذ علي؟

ج: كنت قد خططت لعدم الإدلاء بأية أقوال تفيدكم في القضية، خاصة أنه ليس هناك دليل واحد ضدي. صحيح أنه من السهل اكتشاف أنني لم أسافر إلى السعودية ولكن ذلك لا يعني أنني القاتل. واتفقت مع والدي وإخوتي على أن أختنا قد وضعت رأسنا في الوحل وأن شرفنا قد انتهى فاتفقنا على الخطة التي تعتمد على الإيحاء للآخرين وللسائق بأنني سافرت إلى السعودية، وأن أختفي عن الأنظار. وبالأمس زارني في المنام شخص يبكي ويقول لي أنه سوف يلقى عقوبة الإعدام شنقاً بسبب كتماني للحقيقة فقمت من النوم حزيناً وقلت ليس من المروءة أن يدافع المرء عن شرفه ثم يلصق تهمة القتل بآخرين ليس هذا سلوك من يحمي شرف أسرته من العار. إذ أن الشرف لا يتجزأ فالدفاع عن العرض شرف وعدم إلصاق التهم بالآخرين شرف أيضا. ولذلك حضرت إليكم لأقول الحقيقة كاملة، بعد أن رجع أهلي من توصيلي إلى المطار لم اركب الطائرة وإنما أخذت تاكسي من المطار إلى الإسكندرية ومنها إلى مارينا، حيث ظللت ثلاث ليال أطوف بالفيلا لكي أتأكد من خيانة أختي لشرفها وشرف زوجها وشرفنا جميعاً. وفي الليلة الموعودة وجدت رجلاً يقفز من فوق سور الفيلا إلى الداخل ففعلتُ مثله وقلتُ لنفسي إن كان لصاً سأقتله وإن كان عشيقاً لأختي سأقتله معها. ولاحظت أنه ذهب إلى الباب الداخلي

للفيلا ونقر على زجاج الباب نقرات خفيفة ففتحت لـه أختي وأدخلتـه. انتظرت بالخـارج وأنـا متأكد مـن بشـاعة مـا يحـدث، ولكننـي آثـرت الانتظار قليلاً حتى أضبطهم متلبسيْن وبعد ربع ساعة طرقت البـاب فرأتْ وجهي فذعرتْ فقلت لها: افتحي يا نشوى أنـا مسـافر للسعودية وجئـت للسـلام عليـك ورؤيتـك قبـل سـفري. وفتحـت وهـي مضـطربة خائفة فسلمتُ عليها ثم دخلتُ إلى غرفة النوم فوجدتُ الرجل عارياً فضربتهُ بالسكين في بطنه. ولاحظت أن أختي تُسْرع بالفرار فأمسكتُ بشعرها وطعنتُها بالسكين في قلبها ثم ذبحتهـا مـن الوريـد إلـى الوريـد والتفتُّ أبحث عن الآخر لكي أجهز عليـه، فوجدتُـه قـد تحامـل علـى نفسـه وهرب من فوق السور كما دخل وحاولتُ اللحاق بـه ولكننـي خشيت أن يلمحني أحد ويتم القبض عليَّ، وعدت للفيلا مرة أخرى وقلبت في ملابس الكلب الهارب فعثرت على بطاقته وها هي بطاقتـه. اسمه رامي عبد الهادي خليفة وهذا عنوانه.

وتحركت قوة مدججة بالسلاح في نفس الوقت لإلقاء القبض عليه فلم تجده فاصطحبت زوجتـه وأولاده. وظل الاستجواب للزوجـة والأولاد عن كل الأماكن التي يتردد عليها وتم إرسال مجموعة إلى كل مكان منها حتى عثروا عليـه في حلميـة الزيتون وأخذوا بصماته وفصيلة الدم التـي جاءت متوافقـة مـع البصمات المرفوعـة سـابقاً وعينـة الـدم التي اختلطت بدماء نشوى.

وتم تحويل القضية مصحوبة باعتراف كامل من القاتل (عليّ إبراهيم) ، والزاني (رامي عبد الهادي) ، وأحيلا للقضاء بتهمة القتل العمد مع

سبق الإصرار لـ"عليّ" وتهمة الزنا لرامي عبد الهادي وانقضاء تهمة الزنا للقتيلة لوفاتها. وأسدلت صفحة سوداء من صفحات حمدي المكللة بالفضائح.

عاشت الأسرة هادئة حيناً من الدهر يعد بالأسابيع ولكن حمدي عاوده الحنين لصوفيا فاتصل بها وقابلها وشرح لها كل ما مر به من حوادث.

كانت عادة أحمد أن يجلس مع إخوته مصطفى طالب الطب وهناء الصيدلانية وبسمة المحاسبة ومعهم والدتهم لكي يتابعوا سيارة والدهم وخط سيرها على خريطة جوجل. وهم سعداء بهذا الجهاز العجيب فهاهي السيارة أمام نادي الحوار، ثم ها هي السيارة أمام نادي أعضاء هيئة التدريس ولا يسمع في الميكرفون غير موسيقى خافتة لم يكن هذا عن رغبة في التجسس عليه بقدر ما كان تسلية لوقت الفراغ واستمتاعاً بلعبة جميلة شدت انتباه الزوجتين لكي تنفذاها في سيارتيّ زوجيْهما.
جاءت صوفيا على موعدها مع حمدي وظل يتجول بها بالسيارة في شوارع المنصورة ثم دخل إلى طلخا في الظلام وخطف منها قبلة ثم احتضنها وبثها شوقه وحنينه ثم ضمها إليه.

كل هذا والجميع حول الموبايل يسمعون كل ما يقال، ويتابعون مسيرة السيارة وبعد أن احتضنها حمدي شعر بأنه شخص طبيعي وأن ما

مات منه قد بُعث إلى الحياة وتحرك. وكان ذهوله مضاعفاً وفرحته عارمة. فانحرف بالسيارة إلى طريق زراعي فرعي، ولم ينتظر حتى يصل إلى الشقة الملعونة مهد الخيبة والعجز فلا داعي لتكرار محاولة فاشلة أخرى في مكان يُذكِّره بما سبق من خيبة وخزي.

وعلى الطريق الزراعي الفرعي المظلم انتقل حمدي وصوفيا إلى المقعد الخلفي للسيارة، وبدأت الرحلة وتمت بنجاح. كان صوت حمدي وتأوهات صوفيا أثناء معركتهما عالياً فقامت زبيدة وبدأت في تسجيل كل ما تسمعه. وتبادل حمدي وصوفيا الضحكات العالية ابتهاجاً بنجاح انتظراه من فترة طويلة.

كل ذلك تم تسجيله والذهول يسيطر على الجميع والدموع تنساب من عيون الإخوة في صمت ، بينما زبيدة تضحك تارة من هول المفاجأة وتولول وتصرخ تارة أخرى كمن مسه الجنون.
وتحرك حمدي بالسيارة وذهب بصوفيا إلى شقتها وتركها ثم تحرك صوب منزله. بينما كل من في المنزل يتناوبون البكاء والعويل والصراخ ولطم الخدود، وأحمد يشعر تارة بالغثيان وتارة بالندم.
وصل حمدي والمندبة منصوبة فاستقبله الجميع بالصراخ والعويل والشتائم المقزعة، بدأت البنات في الدعاء عليه وسبه بأقذر أنواع الشتائم:

- ماذا فعلت يا والدنا يا مثلنا الأعلى. أتمارس الزنا على قارعة الطريق؟ ماذا لو رآك أحد أزواجنا؟ ماذا لو ضبطك بعض البلطجية

واعتدوا عليك وفضحوك أو اقتادوك مع العاهرة التي كانت معك عاريين إلى قسم الشرطة؟ ماذا لو صوروك وامتلأت صفحات التواصل الاجتماعي بصورتك في هذا الوضع أيها الزاني الفاجر؟ ألم تفكر لحظة واحدة أن أحد أزواجنا قد يمر بجوارك فيتعرف على السيارة وينزل ليطمئن عليك فيجدك في هذا الوضع المشين؟

وصرخت الصغرى: لعنك الله أيها الأب الوضيع، إننا والله نكرهك ونكره انتماءنا لك، ثم ظلت البنتان تدفعانه في صدره إلى الخارج.

اخرج من هنا أيها الزاني القذر من بيننا فأنت بالنسبة لنا قد توفيت اليوم ولا تحاول الحضور هنا مرة أخرى حتى لا تطرد أمام الجيران.

كان وقع الصدمة عليه صاعقاً فحاول الإنكار والادعاء بأن السيارة كانت مع أحد أصدقائه فواجهوه بتسجيل لكل ما دار فانسحب خارجاً من المنزل ذاهلاً مما حوله. لا يشعر بأحد ولا ينظر إلى أحد ثم ركب سيارته، وانطلق عازماً على عدم الرجوع إلى هذا المنزل مرة أخرى ومتعجباً من كيفية معرفتهم بما حدث.

اتصل حمدي بصوفيا وروى لها ما حدث بكل تفاصيله وأوضح لها أنه قرر ألا يعود إلى هذا المنزل اللعين أبداً. وحاولت صوفيا التخفيف عنه والتقيا في المساء وبينما هم يتابعون نشرة الأخبار عن رد الفعل لدى شباب مصر إزاء ما حدث في تونس، شعرت صوفيا بقشعريرة

ووضع حمدي يده فوق جبينها واتضح أن حرارتها مرتفعة جداً، نزل إلى الصيدلية على عجل واشترى لها مضاداً حيوياً وخافضاً للحرارة وصنع لها كوب ليمون وظل بجانبها حتى استغرقت في نوم عميق.

وفي الصباح قامت صوفيا من النوم محطمة القوى وآلام العظام تهاجم كل جسدها وشعرت بارتفاع جديد في الحرارة، واتفقت هي وحمدي على أن هذه مقدمات الأنفلونزا الموسمية التي تأتي في شهر يناير من كل عام.

استمرت الحمى عدة أيام وظهر طارئ جديد وهو الإسهال الشديد الذي استنزف قواها. أخذها حمدي إلى أحد الأطباء فشخص الأمر على أنه التهاب حاد بالقولون ولا داعي للقلق وأعطاها علاجاً كثيراً شعرت بعده ببعض التحسن، ولكن الحالة عاودتها فالحرارة لا تريد أن تتركها والإسهال ملازم لها.

ذهبا إلى طبيب آخر فطلب مجموعة من التحاليل، وكان تشخيصه في النهاية أنها أعراض الحمى التيفودية، وأكد لهم دقة التشخيص وأشار إلى أحد التحاليل ورسم حوله دائرة حمراء وقال لهم أن التتر Titre أي مستوى الأجسام المضادة 640-640 ، وهذا دليل أكيد على وجود التيفود لأن التتر في الحالة العادية يتراوح من 160-80 ، ونصحها بالتوقف عن العلاج القديم وكتب لها علاجاً للتيفود.

استأذن منها حمدي للذهاب إلى الكلية وألقى محاضرته في ذلك اليوم الذي شهد حضور قلة قليلة من الطلاب لأن الشباب كله كان ملتفاً حول الفيس بوك. فنحن الآن في الأسبوع الأول من شهر يناير والموعد الفاصل مع المظاهرات الحاشدة ضد وزير الداخلية هو يوم عيد الشرطة ٢٥ يناير.

وسأل حمدي عن مجموعته المقربة فلم يجد أحداً منهم. وحاول الاتصال بهم فردوا عليه، وعرض عليهم خدماته وإمكاناته ولكنهم شكروه وأفهموه أن الشباب المصري الثائر قرر الاعتماد على نفسه تماماً وفقد الثقة في أساتذة الجامعات وفي كبار الكتاب والأدباء وفي رجال الأحزاب وفي الصحفيين الموالين للحكومة وفي نجوم التوك شو.

وأصبحت التعليقات على الفيس بوك تنتقد مبارك وزوجته وابنه ولي العهد. وكان نصيب النائحات اللاتي يولولن على شاشة التليفزيون عبر برامج التوك شو من السباب والشتائم كبيراً. كانت المناحة منصوبة كل ليلة تنافس كل نائحة زميلاتها على القنوات الأخرى.
ثم هناك الصحفيون الذين انتقلوا من الكتابة إلى الزعامة السياسية عبر برامج التوك شو، وسيطرت عليهم غطرسة الزعامة، فانطلقوا يكيلون الاتهامات للشباب بالعمالة للخارج والعمل على تخريب مصر وتدمير أمنها واستقرارها.

جاهد حمدي ليلتحق بهم ولكنهم صمموا على طرد كل أعضاء النخبة الخائنة من بين صفوفهم. وذكروا أسماء محددة في القائمة السوداء تشمل كل من تعاون مع النظام من المثقفين، وكل من لعب على الحبل المشدود بين النظام و المعارضة، وكل من هاجم النظام نهاراً وبات في فراشه ليلاً.

كانوا يحتقرون المنافقين من الكتاب ولكنهم لم يكرهوهم، فصراحتهم في النفاق والالتفاف حول الحاكم لا تدع لواحد فرصة لاتهامهم باستغلال حماس الشباب والركوب فوق ظهورهم.
كانوا يحتقرون الوزراء وأعضاء البرلمان ولكنهم كانوا واضحين أيضاً وحددوا مواقفهم مع النظام منذ البداية، وكذلك رجال الأعمال الذين كانوا سنداً للنظام في وضح النهار.

إلا أن احتقارهم وكراهيتهم العميقة وإحساسهم بالرغبة في الثأر كانت من نصيب أولئك المثقفين الكبار والسياسيين أصحاب المبادئ الذين خانوا مبادئهم وادعوا أنهم من سلالة الأنبياء بينما هم من ذرية إبليس.

لم يكن يعنيهم ما يكتبه رئيس تحرير الأهرام أو الجمهورية أو الأخبار و لكن مراقبتهم لمقالات المعارضة والصحف المستقلة كانت دقيقة ليتأكدوا من ارتماء الكبار في أحضان الفساد. والكبار عندهم هم أولئك الرجال الذين التف الشباب حولهم وآمنوا بهم ونصبوهم زعماء لهم.

وكان حسهم صادقاً ونقاء الضمير لديهم أنار لهم ظلمة الطريق واتضح أن من كانوا يشكون فيهم قبل الثورة كانوا عملاء لأمن الدولة فعلاً، وظهر هذا بعد اقتحام مقرات أمن الدولة والإطلاع على ملفاتها المتخمة بقصص البطولة الوهمية لكبار المثقفين.

رجع حمدي إلى صوفيا في اليوم التالي فوجدها في أسوأ حال حرارة مستمرة وإسهال مستمر وإجهاد بغير حدود.

وكان لابد من استشارة الطبيب النابه محمد عبد الحليم فذهبت صوفيا إليه بمفردها وطلب مجموعة جديدة من التحاليل في نفس اليوم، ثم احتفظ بالتحاليل في ملف خاص وضعه في درج محكم لا يطلع أحد على ما فيه من الأطباء المساعدين أو هيئة التمريض.

وفاتحها د. محمد عبد الحليم بضرورة الإقامة في المستشفى بعض الوقت تحت الرعاية الطبية في مستشفى الحميات بالعباسية، وحاولت أن تفهم سر تمسكه بالعلاج داخل المستشفى فأكد لها أنها تحتاج لتركيب محاليل بالوريد طوال اليوم وستأخذ علاجاً مكثفاً تحت إشراف الأطباء، ولخص لها رأيه قائلاً: الإقامة في المستشفى ضرورية في مثل حالتك.

فاقترحت عليه الإقامة في مستشفى خاص تكون العناية به أفضل فكرر قوله: إن مثل حالتك لا تحتجز إلا في مستشفى حميات العباسية. ونصحها بإغلاق الهاتف وعدم الرد على أية مكالمات حتى لا يعرف

أحد أنها في مستشفى الحميات وأن تظل إقامتها في المستشفى سراً حتى تخرج منها.

زاد الغموض والقلق ولم تشأ صوفيا أن تسأل أكثر من ذلك، فهي كلما سألت سؤالاً ازداد الأمر غموضاً عن ذي قبل. فأطاعت أوامر الطبيب مستسلمة لقدرها وتوكلت على الله في كل ما يحدث لها.
وقالت لنفسها : سوف ينكشف كل شئ بعد حين.

ذهبت صوفيا إلى مستشفى الحميات بالعباسية وأغلقت هاتفها كما طلب الطبيب وعند دخول المستشفى اشمأزت من قذارة المكان ثم سارت بداخلها فشعرت بالإهمال في كل أركان المستشفى.

دخلت صوفيا إلى الطبيب النوبتجي ومعها خطاب تحويل الحالة إلى المستشفى من د. محمد عبد الحليم. فقام الطبيب على الفور مهتماً ووقَّع الكشف الطبي وخَصَّصَ لها سريراً في القسم الداخلي.

دخلت صوفيا إلى عنبر المرضى فرأت حولها هياكل عظمية لنساء نخر الوهن والفقر في عظامهن، رأت أشباحاً تمشي بين الأسرَّة، رأت الموت حين يحوم حول مكان ما. كانت علامات الموت على وجوه المرضى أكثر وضوحاً من علامات الحياة.

ليس هناك أقسى على الإنسان من المرض ولكن قسوته تكون أشد وأعتى إذا كان المريض فقيراً. وهؤلاء شريحة من الشعب المصري

المنكوب بحكامه ومثقفيه. هؤلاء المرضى لا ذنب لهم فيما يحيط بهم من إهمال وقذارة وسوء معاملة. الذنب ذنب الحكام ومن نافقهم وحمل لهم المباخر وزين لهم سوء أعمالهم.

استسلمت صوفيا وانهارت فوق السرير المخصص لها، وظلت تتطلع إلى وجوه المرضى وتتفرس وجوه الممرضات. المرضى على شفا حفرة من الموت والممرضات يغطين وجوههن بـ(الماسك) الذي يقي من العدوى. غطاء يحمي الفم والأنف من رذاذ المخاطر المحملة بالميكروبات.

نامت صوفيا على سرير حديدي يَئِنُّ من كل نواحيه ويصدر أزيزاً مع كل حركة وتحت جسمها ملاءة رمادية اللون كانت بيضاء في سالف أيامها، ولما وضعت رأسها وجدت الوسادة سوداء من كثرة العرق والزيت حتى لمع لونها الأسود.

تلفتت صوفيا يمنة ويسرة لتشعر بالأنس مع سيدة أخرى ولكنها لم تجد ابتسامة تشجعها على التحمل أو كلمة مواساة من أحد فالكل في آتون المرض لا يشعر إلا بما يدور داخله.

لم تجد صوفيا سبباً لاستسلامها الغريب وهي التي نامت في أفخم فنادق أوربا وتناولت الطعام من أعرق مطاعم الدنيا كلها. واهتدت إلى سبب استسلامها، فقد هدَّ المرض قدرتها على اتخاذ قرار، فأصبحت مسيَّرة لسطوة المرض لا مُخَيَّرة في أمر نفسها. ثم كانت

رحلتها مع الأطباء خارج المستشفى وعدم اهتدائهم إلى العلاج الشافي ثم ثقتها الكبيرة في الدكتور محمد عبد الحليم.

ثم وجدت نفسها تستسلم للقهر والحزن والضياع فسالت دموعها غزيرة على وجهها. ولمحتها جارتها في السرير المجاور وحاولت التعرف عليها والتحدث معها ولكن صوفيا لم تُعِر اهتماماً لأن فيها ما يكفيها وزيادة. وردت السيدة الريفية ببساطة واستسلام: كلنا كنا مثلك في البداية ثم تعودنا على المرض وتعود المرض علينا.

اتصل حمدي بصوفيا مرات ومرات وكان التليفون مغلقاً دائماً وجن جنونه فذهب إلى شقتها وطرق الباب كثيراً فلم يجدها، وسأل عنها الجيران فأكدوا له أنها ذهبت منذ عدة أيام ولا نعرف عنها شيئاً.

كان يجلس في السيارة أمام العمارة ساعات وساعات ربما يراها أو يُنَبْئُه أحد بخبر عنها. وكلما هم بالتوجه بعيداً عن شقتها إذا به يعود إليها مرة أخرى.

أين ذهبت؟ ولماذا أغلقت الموبايل.؟ إن في الأمر سراً خطيراً. ثم يسأل نفسه هل أغضبها دون أن يشعر؟ هل انسحبت من حياته بعد واقعة التجسس عليهما حتى لا تسبب له مزيداً من المشكلات؟ هل

أصابها مكروه (حادث مثلاً) لا قدر الله؟ ولكن الموبايل مغلق دائماً ومعنى ذلك أن من أغلقه لا يريد لأحد أن يتصل به.

ثم انحرف فكره انحرافاً شديداً في نواح أخرى، فسأل نفسه هل عادت إلى زوجها القديم؟ هل ملت صحبته؟ هل ضايقها أحد عندما لاحظ ترددها عليه وتردده عليها؟ هل دخلت في دوامات عائلية مثل ما حدث مع نشوى؟

وخطر له خاطر كاد يطيح بعقله تذكر أن قدرته في الفراش ليست على ما يرام لسرعته في الوصول إلى المحطة الأخيرة بينما شريكاته جميعاً لا يلحقن به فيتركهن في المحطات الأولى ويصل منفرداً إلى المحطة الأخيرة.

حدثته نفسه أن هذه المهرة الجامحة لابد لها من شخص يخضعها ويهد قواها ويدك قلاعها الحصينة ولا يتركها إلا جسداً ممدداً منهكاً مهدوداً مكوماً في ركن من الفراش. هكذا ينبغي أن يكون فارسها فأين أنا من ذلك؟

تصور حيناً أنها هجرته لهذا السبب الذي لم يلق له بالاً في يوم من الأيام، وها هي الأيام تسحب منه آخر المدن التي تحصن بها. كان يقضي الليل بأكمله ساهراً ينظر بلا ملل إلى شاشة الموبايل عله يلمح رقمها قبل أن يسمع الرنين.

ظل يجوب شوارع المنصورة بحثاً عنها يتفرس الوجوه ويلمح فستاناً مثل فستانها فيجري نحوها أو تسريحة شعر تماثل تسريحتها فيسارع للتأكد من صاحبة التسريحة.

ساءت حالة صوفيا في المستشفى وتفاقمت حالتها وتدهورت صحتها أكثر فأكثر. دب الهزال وفقر الدم بها وفقدت الكثير من وزنها وامتقع لونها. ولم تُجدِ محاولات الأطباء شيئاً يذكر ولا المحاليل التي تخترق أوردتها من كل ناحية شفعت في قليل أو كثير وفي كل مرة كانت تسأل الأطباء بصوت مخنوق عن حقيقة مرضها فلا يجيبها أحد بأسلوب واضح، ولكنها تسمع عبارات مبهمة مثل الحمى الغامضة أو الخلل المناعي أو الفيروسات المتحورة. وحينما أدركت أن الخطر صار محدقاً بها طلبت من إحدى الممرضات موبايل واتصلت بحمدي وطلبت منه الحضور إلى مستشفى العباسية وشرحت له سوء حالتها وتدهور صحتها وغموض ما هي فيه.

نهب حمدي الطريق من المنصورة إلى القاهرة ثم إلى مستشفى الحميات بالعباسية وكان يقدم نفسه للأطباء: د. حمدي فيعتقدون أنه زميلهم أي طبيب بشري مثلهم فيفسحون له الطريق.

ودخل حمدي يتفحص وجوه السيدات البائسات وأجسادهن الناحلة وأرواحهن المنكسرة. وظل يبحث عنها بينهن حتى أشارت إليه. كان ذبولها وتغير ملامحها وامتقاع لونها وبروز عظام وجنتيها وفكيها كان ذلك كفيلاً بألا يتعرف عليها.

سألها عن مرضها فقالت له أنها لا تعرف حقيقة مرضها فتوجه إلى أحد الأطباء النواب وسأله عن تشخيص حالتها. اكتشف الطبيب المقيم أن حمدي ليس طبيباً فلم يعطه رداً وافياً وطلب منه برقة أن ينسحب من عنبر السيدات، فاستمهله حمدي بضراعة بعض الوقت.

ثم جلس على حافة فراشها يبكي، ولمح تحت وسادتها ملفها الطبي فسحبه وظل يتطلع إليه، ولم يفهم منه شيئاً إلا أنه وجد كلمة أحيطت بدائرة حمراء ففهم أنها لب الأمر كانت الكلمة (HIV+ve) وبينما حمدي يقلب في الملف حضر الطبيب المقيم النوبتجي وصاح فيه: عيب يا أستاذ هذه أسرار المرضى وعليك الانصراف من بين السيدات فهذا لا يليق ولا تضطرني لاستدعاء الأمن، تفضل يا أستاذ فوراً.

لم يجد حمدي مناصاً من الطاعة وانصرف مودعاً صوفيا وتمنى لو كان يعرف أحد الأطباء في هذه المستشفى ليفك له ألغاز ما يراه. هؤلاء الأطباء الذين كان يكرههم ويتشفَّى فيهم يتمنى الآن لو صادق أحدهم. ثم قال آه ما أعجب هذه المهنة فكلمة تخرج من شفتي طبيب قد تنشر السعادة أو الشقاء في أسرة بأكملها!

ثم خرج حمدي من المستشفى وجلس في سيارته واتصل بأحد الأطباء الذين قابلهم يوماً وسأله عن تفسير كلمة (HIV+ve) فقال له:

- هذا اسم فيروس مرض الإيدز.

- ماذا تقول؟ الإيدز؟! الإيدز؟! ماذا تقول يا رجل؟ تقصد الإيدز الذي هو طاعون العصر؟! هه؟!! هل تقصد ذلك فعلاً؟!!

ضحك الطرف الآخر وقال له أن عامة الناس يعرفون هذا الاسم المختصر فهو اختصار لكلمة Human Immuno Defeciency Virus أي فيروس نقص المناعة البشري. أما المرض فاسمه AIDS اختصاراً لكلمة Acquired Immuno Defeciency Syndrome أي متلازمة نقص المناعة المكتسب.

ثم سأله الطبيب: ولكنك تسأل عن من؟ وأين المريض؟ فقال له حمدي أن أحد معارفه يرقد في مستشفى حميات العباسية.

ثم سأله حمدي: ولماذا تم حجزه في هذه المستشفى تحديداً؟
فرد عليه الطبيب: أن مريض الإيدز إذا ظهرت عليه مضاعفات المرض فلابد من حجزه في هذه المستشفى تحديداً على مستوى الجمهورية، أما إذا كان المرض كامناً والحالة هادئة فيمكن للمريض أن يمارس حياته بصورة طبيعية وأن يذهب إلى عمله أو بيته.

سأله حمدي: وهل هذا مرض خطير حقاً بالصورة المرعبة التي نعرفها؟
رد الطبيب: طبعاً مرض خطير لأنه يدمر جهاز المناعة المسئول عن مقاومة كل الميكروبات، فجهاز المناعة مثل الجيش الذي يحمي حدود البلاد، تخيل دولة بدون جيش؟ كل إنسان يستطيع أن يغزوها وينتهك حرماتها. وهكذا جهاز المناعة يحمينا من كل الميكروبات والفيروسات التي نتعرض لها دون أن نشعر. ولكن خطورة الحالة تختلف من شخص إلى آخر حسب الظروف الصحية والحالة العامة

ونسبة الميكروب في المريض، ولذلك تجد إنساناً مصاباً به منذ سنوات وتجد إنساناً آخر يموت من آثاره بعد أسابيع أو شهور.

حمدي: وهل يوجد علاج له؟
الطبيب: علاج عقيم يؤخر الأمور بعض الوقت.

حمدي: وهل يموت المريض سريعاً؟
الطبيب: كما قلت لك. كل حالة لها ظروفها وتطور العلاج أو المرض يختلف من مريض لآخر. فلو تعرض مريض الإيدز مثلاً لالتهاب رئوي أو التهاب سحائي أو لتسمم بالدم فالمريض في هذه الحالة ستكون حالته أسوأ ما يمكن وقد يلقى حتفه في أيام قليلة.

س: وكيف ينتقل هذا المرض؟
ج: بالاتصال الجنسي أو نقل الدم ويكثر حدوثه بين الشواذ و بين من يتعاطون المخدرات بالسرنجات الملوثة. وقد تم الحصول على الفيروس من سوائل الجسم المختلفة مثل اللعاب والأنف والدموع، إلا أن هذه السوائل لا تمثل مصدراً للعدوى في أغلب الحالات، فمعظم الحالات من نقل دم أو مخالطة جنسية أو مخدرات ونادراً ما تنقل السوائل الأخرى المرض ولكن الحذر منها واجب على كل حال.

حمدي: شكراً جزيلاً وسوف أنقل هذه المعلومات القيمة لأهل المريض.

أنهى حمدي مكالمته مع الطبيب ووضع يديه على رأسه واستند بجبهته على مقود السيارة. ثم نزل من السيارة ليطلب ماء يبلل به جفاف حلقه فوجد ساقيه لا تقويان على حمله، فاستند على سور المستشفى، وشعر بدوار شديد، وزغللة في الرؤية فجلس على الأرض بجوار السور ووضع وجهه بين ركبتيه ودارت دوامات الأشباح في خياله وشعر من أثر الدوار بشئ من الانفصال عن الواقع المحيط به.

وأظلمت الدنيا بفعل هبوط الدورة الدموية ورأى أشخاصاً في رؤاه تسرع الخطى، وآخرين ينظرون إليه، وآخرين يعدون في الطريق عدواً. ثم لاحت له بين الظلمات أنوار مضيئة لسيارات مقبلة عليه وهو يمد يديه بينهم ليتفادى صدامهم به، ثم شعر برغبة في القيء وتقيأ بين قدميه ولم يعبأ به السائرون من المرضى والزائرين.

وعندما تقيأ شعر ببرودة أطرافه وبأن الظلام المحيط به ينكشف رويداً رويداً حتى صار قادراً على رؤية من حوله. ومر أمامه بائع المياه الغازية فطلب واحدة وزجاجة مياه، ثم أعطى ما في جيبه للبائع الذي أخذ جزءاً ورد الباقي إليه.

شرب زجاجة المياه الغازية ثم سكب الماء على وجهه ورأسه ليستفيق حتى أصبح قادراً على الوقوف، فتوجه إلى سيارته وجلس فيها ثم انتظر عدة دقائق ليستكمل وعيه، ثم أدار السيارة وتحرك ببطء شديد ثم أدركه الإعياء الشديد، فانحرف إلى اليمين وتوقف

بسيارته. وطلب السائق أن يحضر لقيادة السيارة وحدد له حمدي المكان.

حضر السائق على عجل، وارتمى حمدي على الكرسي الخلفي وتحرك السائق وسأل حمدي عن وجهته فلم يَقْوَ على الرد. فسكت السائق بعض الوقت ثم أعاد السؤال مرة أخرى فقال له حمدي: أي مكان يا عم محمود، دهش السائق من الرد كيف يتجه لأي مكان؟ ثم هذه هي المرة الأولى التي يناديه بها حمدي: يا عم محمود.

وشعر السائق بالإشفاق والخوف والقلق على هذا الكيان المحطم الملقى بالخلف. هذا الجبل الأشم الذي كانت تهتز له الجامعة، وترتعد له الفضائيات، ويتحسب الوزراء ورجال الأعمال لنقده العنيف. كيف صار هكذا حطام إنسان؟

دارت السيارة بحمدي في شوارع كثيرة وميادين عديدة وهو غير قادر على استيعاب ما حدث ولا تقبل ما سمع. ليس عنده قرار محدد بجهة محددة يتحرك إليها. هل يذهب إلى عائلته التي طردته؟ أم يذهب إلى شقته ليموت فيها وحيداً؟ ومن يرعاني إذا ذهبت إلى الشقة وحدي؟ أنا لا استطيع أن أحضر كوب ماء لنفسي فكيف أعيش وحيداً؟ هل يذهب إلى قريته؟ لقد تقطعت الأواصر بينهم حتى الآن. صحيح أنهم لن يطردوه ولكنهم سيتركونه وحيداً منبوذاً بينهم يجتر آلامه وأحزانه وربما دفعهم هذا إلى الشماتة به.

يا إلهي كيف ضاقت الدنيا إلى هذا الحد وما هذا الوابل المتلاحق من الصواعق؟ ويبدو أن السائق أدرك ما يدور بخلده فقال له: ما رأيك يا سيدي الدكتور أن تشرف أسرتي بالإقامة معنا يوماً أو يومين في شقتي المتواضعة وسوف أحبس الأولاد في حجرة بعيداً عنك حتى لا تضايقك ضوضاؤهم وأم سيد زوجتي تطبخ طبيخاً رائعاً أحسن من طبيخ أي مطعم؟ أرجوك أن تلبي هذا الرجاء الذي سيسعدني ويسعد أسرتي.

كان عرضاً كريماً من السائق ولكنه مستحيل من كل الوجوه ولم يكن هناك مفر من الذهاب إلى الشقة الجديدة المستأجرة حديثاً في المنصورة فليذهب إليها ويطلب من السائق كل ما يريد من طعام وشراب وعلاج.

وصل حمدي إلى الشقة وارتمى على الفراش ونام يوماً كاملاً بلا طعام أو شراب ثم نهض من نومه ووجد الثلاجة بها الطعام والشراب فمد يده ليأخذ بعض الطعام ولكنه لم يجد في نفسه شهية للطعام أو الشراب. فصنع لنفسه فنجاناً من القهوة وجلس يفكر في هدوء.

إن صوفيا أصيبت بالإيدز و من المؤكد أن المرض انتقل إليَّ منها وقد يكون انتقل مني إليها. إن صوفيا تصارع الموت في الجولات الأخيرة. فهل سألحقها قريباً؟ وهل كل مريضة عاشرت شخصاً لابد أن ينتقل المرض إليه؟ إن شخصاً مريضاً بالأنفلونزا قد تنتابه نوبة الكحة أو العطس في سيارة وليس حتمياً أن يصاب كل من في السيارة

بالأنفلونزا. أفضل قرار هو أن أذهب إلى المعمل لكي أجري التحليل الملعون هذا (HIV) ولن أقول لهم اسمي الحقيقي وعندئذ أتحقق من إصابتي بالمرض من عدمه. ربما يَشُون بى ويحولونني إلى مستشفى حميات العباسية فالعالم كله في رعب من هذا المرض.

إنني أشعر إنني في صحة جيدة فهل يعني هذا أن المرض قد يطول بقاؤه معي ولا يقضي عليَّ بسرعة مثل صوفيا؟ ومن يدري ربما كان المرض عند صوفيا منذ وقت طويل وأنا لا أعرف عنها شيئاً ولا أعرف زوجها ولا أهلها ولا أصدقاءها، إنها بالنسبة لي عالم غامض قد يكون وراءه ما وراءه.

إن مصيبة هذا المرض أنه يأتي بالموت والعار معاً متلازميْن فالناس تخشى الاقتراب من مريض الإيدز. أعرف من سنوات رجلاً قيل أنه مصاب بالإيدز وحينما دخل المسجد هرب المصلون جميعاً من كل الأبواب.

إنه العار وإنها الفضيحة، وما أبشعها من ميتة يجلل العار سرادقها؟ استبد به الخوف الرهيب وفي دوامات القلق والخوف لم يجد في نفسه مقدرة على تذوق الطعام فمكث في شقته يومين بدون طعام حتى ذبل عوده وأصبح كهلاً مريضاً. وشعر أن نهايته في هذه الشقة ستكون أسرع مما يتوقع فقد يموت من الجوع أو الحسرة أو هماً معاً. ولكن أين يذهب؟ لا مفر من البقاء.

وفي هذه الأيام كانت نوبات الرؤيا المفزعة تعاوده كل ليلة وكانت آلامه أثناء النوم أشد من آلامه في اليقظة، وليس هناك من يمد له يد المساعدة بكوب من الماء. ولكن لا مهرب أيضاً من ذلك فليبقَ في هذه المقبرة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

بدأت تظهر على حمدي أعراض مرضية تشبه الأعراض التي حدثت لصوفيا. بدأت حرارة جسمه ترتفع بشدة وتستمر معه طوال اليوم وبدأ يشكو من الإسهال المستمر الذي يحدث بدون تناول طعام.

ثم ظهر طفح بني خفيف على وجهه واشتدت الحمى أكثر فأكثر وعافت نفسه الطعام تماماً وكان يطلب بعض الطعام من السائق فيأتي به ويضعه إلى جوار طعام اليوم السابق في الثلاجة.

في المرة الأخيرة شعر السائق أن حمدي في طريقه إلى الفناء فجلس على الأرض وسط الصالة وظل يبكي بصوت مرتفع وهو يقسم أيماناً غليظة أنه لن يترك سيده في هذه الحالة وخاطب د. حمدي بحسم: إما أن تأتي معي أو أبيت معك وإن رفضت الأمرين فو الله العظيم سوف أرمي نفسي من هذه البلكونة. لقد أكلتُ من خيرك وتربى أولادي على عطائك لي فلا يمكن أن أتركك واتفرج عليك وأنت تتلاشى أمامي.

جلس حمدي أمامه يفكر فيما عساه أن يفعل. وأخيراً استسلم لفكرة أن يذهب لأسرته وليكن ما يكون. فاصطحبه السائق إلى منزله وطلب منه حمدي أن يترك السيارة بالجراج ثم صعد حمدي درجات السلم حتى وقف أمام الشقة ودق جرس الباب وسمع أصواتاً من الداخل وصوت التليفزيون ولكن لم يرد أحد. كان يعلم أنهم شاهدوه من العين السحرية وقرروا ألا يفتحوا له الباب.
ولم يعد في إمكانه النزول فجلس على السلم المواجه لباب الشقة وأسند رأسه على الجدار ومد ساقيه ومكث على هذا الحال فترة من الزمن لا يدري كم هي. وأثناء جلوسه على هذا الوضع الحزين صعد مصطفى على السلم. كان عائداً من محاضراته في كلية الطب، وصعق مصطفى من هيئة والده.

كان جلوس والده على السلم أمام باب الشقة ثم هيئة والده الذي كبر في العمر عشرين عاماً دفعة واحدة، ثم اصفرار وجهه وبروز عظام الوجه وتهدل البدلة التي يرتديها والده. شعر مصطفى بآلام الدهر كلها تهبط على رأسه، نسي كل شئ عن والده ولم يعد أمامه إلا الوالد المحطم الذي صار شبحاً والكلاب لا يريدون إيواءه.

انهال مصطفى على والده يحتضنه ويبكي ويقبل يديه وقدميه ثم تعالى بكاؤه. وسمع الموجودون بالداخل نشيج مصطفى، وتقطع أصوات بكائه الحار وظل مصطفى ملقى فوق والده يحتضنه بكل ما أوتي من قوة. وعندئذ فتح الباب وحضر أحمد وزبيدة والأختان هناء وبسمة. فساعدوا مصطفى في حمل والده إلى حجرته، لم يكف مصطفى عن

البكاء وهو يتساءل ما الذي فعل بك هذا يا والدي؟ مم تشكو؟ هل زرت أحد الأطباء؟

نام حمدي على السرير وأعطى ظهره للآخرين، وقفز مصطفى حتى نام في حضنه وأصبح بين والده وبين حائط الغرفة وظل محتضناً والده هكذا فترة طويلة، فانصرف الباقون إلى الصالة لا يتكلمون ولا يتهامسون كأن على رؤوسهم الطير. قام مصطفى من أحضان والده واستأذن والده لكي يحضر له طعاماً فاعتذر والده فأقسم مصطفى بأغلظ الأيمان عليه أن يأكل.

خرج مصطفى وطلب من الجميع أن يبتعدوا عن الصالة حتى لا يسمعهم الوالد فذهبوا إلى ابعد غرفة. فسأل مصطفى أخاه ووالدته وأختيه:

س: ألم تروا والدنا هكذا من العين السحرية؟
ج: لا.

س: ألم يطرق الجرس وسمعتم صوته؟
ج: لا أحد يرد

س: هل نسيتم ماذا فعل والدكم لكم؟ هل تحاسبونه؟ هل وكَّلكم الله في خلقه؟ ألم تسمعوا عن شئ اسمه العفو والغفران؟ إن الله يغفر لعباده وأنتم لا تغفرون له وتتركونه محطماً جالساً على السلم كمن يطلب

الصدقة ونسيتم أنكم تعلمتم بماله وتزوجتم بماله وتنفقون الآن من ماله وتأكلون من ماله وتقيمون في منزله؟ وعادت لمصطفى نوبة البكاء مرة أخرى.

دخل مصطفى بالطعام إلى والده، واقسم عليه أن يأكل فقام حمدي إكراماً لابنه البار وجلس معه وتناول بعض الطعام ثم استدعوا جارهم المستشار حسن البصري. الذي شعر بهمٍّ كبير يجثو فوق صدره عندما رأى حمدي فليس هناك أرَقٌّ من قلب هذا القاضي الجليل. كان حمدي قد انقطع عن زيارة المستشار حسن وكان حسن مشغولاً بالجمعية الخيرية وبالأيتام والأرامل فلم يسأل عن حمدي.

ثم اتصل المستشار حسن بالدكتور محمد عبد الحليم الذي حضر ووقع الكشف الطبي وطلب بعض التحاليل الطبية وجاءت النتيجة إيجابية للإيدز كما كان يتوقعها الطبيب وعرض عليهم الدخول إلى المستشفى فرفضوا جميعاً وهم لا يعلمون حقيقة المرض.

وعندما تيقن د. محمد من رفضهم القاطع بدا في تطبيق النظرية الطبية المتبعة مع المرضى الميئوس من شفائهم وهي نظرية دعه يموت في سلام Let him die in peace.

طلب د. محمد أن ينفرد بمريضه وهوَّن عليه الأمر، وأن هذا المرض يشفي منه الكثيرون وأن علاجه أصبح سهلاً ميسوراً. وركب المحاليل له لما رأى عزوفه عن الطعام و ركب له أنبوب طويل من أنفه إلى معدته وصب فيها كل أنواع الطعام صباً. وبدأت حالة حمدي تتحسن تدريجياً فعادت له ابتسامته وتفاؤله.

فتح د. حمدي التليفون وكان اليوم هو اليوم الموعود ٢٥ يناير ٢٠١١ . نزلت الجموع الهادرة من كل صوب وحدب إلى ميدان التحرير وإلى كل الميادين الرئيسية في كل المحافظات، وقسَّم الشباب أنفسهم بعضهم مسئول عن الطعام، وبعضهم مسئول عن الشراب، وبعضهم مسؤل عن تفتيش الداخلين إلى الميدان حتى لا يندس العملاء.

وحاولت الداخلية احتواء الأمر ولكن من يستطيع أن يقف في وجه الطوفان، وظل الشباب في الميادين يرددون الأناشيد الحماسية لبلدهم مصر. وأسقط في يد أولى الأمر فلم يتخيل عاقل أن مصر الهادئة الخاملة الخائفة تهب فجأة هكذا بفعل شبابها الجسور.

وحاول المتنطعون وكذَّابو الزفة والمنافقون وحملة المباخر الدخول إلى الميدان ولكن الشباب طردوهم. كان أوان مبارك قد ولىَّ، وسقطت رءوس كثيرة، وهرب وزراء إلى الخارج، وتدحرجت رءوس النخبة الخائنة تحت أقدام الشباب. وقدم الشباب درساً قاسياً للمثقفين

الخائنين الذين أمدهم الله بالعقول الجبارة ولكن نفوسهم وأرواحهم كانت أحقر من الخنازير.

اتصل حمدي في نوبة التفاؤل بتحسن حالته بتليفون صوفيا فردت عليه جارتها في المستشفى وأخبرته أن صوفيا ماتت صباح اليوم إلا أن جثتها في ثلاجة الموتى بالمستشفى.

انتكست حالة حمدي انتكاسة شديدة بعد سماعه الخبر المشئوم وأصيب بإلتهاب رئوي لا يُبقى ولا يذر وظل الحلم المفزع يطارده كل ليلة. ثم تدهورت حالته وتهاوى بسرعة حتى فاضت روحه إلى بارئها مساء يوم الخامس عشر من فبراير ٢٠١١م.

كان الابن الشقي أحمد قد سحب أوراق التحاليل والروشتات الخاصة بوالده وعرضها على بعض الأطباء الذين كشفوا له عن حقيقة المرض، وبسرعة أخبر أسرته، وطار خبر إصابة د.حمدي حسين بالإيدز إلى كل أهل المدينة وإلى أهل قريته.

اشتد خوف الأسرة من انتقال العدوى لهم فابتعد كل منهم عن الجثة إلا مصطفى، الذي صار يندفع باكياً إلى الحجرة، فيشده أهله إلى الخارج. واجتمعت الأسرة وقررت نقل الجثة إلى بيت العائلة في القرية حيث تتم مراسم الدفن من غسل وصلاة وجنازة وغيرها.

حمل أحمد والده في سيارته وتوجه به إلى بيت العائلة وطلب منهم أن يجهزوا الكفن ومستلزمات الغسل وكل ما يطلب في مثل هذه الأمور. استقبل الأهل أحمد و جثة والده في وجوم والكل يخشى من انتشار العدوى إليه أو إلى أولاده.

فأحضروا بطانية قديمة ولفوه بها وحملوه إلى الداخل. وجاءت اللحظة الفارقة لحظة الغسل الشرعي. لم يكن أحد مستعداً للإقدام على هذه المخاطرة حيث يتطاير الماء من حول الجثة محملاً برذاذ المريض المحمل بفيروسات المرض.

وظل الأهل صامتين ينظر بعضهم إلى بعض ويبحثون عن مخرج والجثة مسجاة في حجرة على كنبة خشب بلدي لا يتقدم إليها أحد. بحثوا عن مغسل الموتى بالقرية فتهرب منهم. وعندئذ اهتدى أحدهم إلى فكرة أن يسلطوا عليه الماء من خرطوم بعيد من فتحة في الباب، ثم يدخل أحدهم يلقي عليه مجموعة من الملاءات ويتم لفه فيها بإحكام دون أن يلمسها أحد. لم يلتفت أحد إلى أحكام الغسل الشرعي وطريقته. كان المهم إتمام المراسم بسرعة.

ثم أحضروا النعش وحملوا الجثة بداخله إلى أقرب مساجد القرية وانتظروا ليحضر المشيعون للصلاة عليه فلم يحضر أحد. باستثناء بضعة رجال جاءوا لصلاة الظهر مصادفة.

صلوا الظهر، ثم صلاة الجنازة، ثم حملوه إلى مثواه الأخير ولم يكن حوله إلا عشرة أشخاص انسحب معظمهم ولم يتبق منهم إلا الأربعة الذين يحملون النعش. ابنه أحمد والمستشار حسن البصري والمهندس الصوفي فوزي والدكتور محمد عبد الحليم.

حمل الأربعة النعش وكان ثقيلاً عليهم حيث يصنع النعش من أشجار الكافور الثقيلة ووزنه فارغاً ينوء به الرجال. وفي مثل هذه المواقف يتبادل المشيعون حمل النعش بين الحين والآخر فكلما حمله مجموعة من الرجال أتت بعدهم مجموعة أخرى لتتبادل حمل النعش معهم.

وشعر الرجال الأربعة بالإجهاد والإرهاق وكل منهم ينظر إلى قارعة الطريق مستغيثاً لكي يساعدهم أحد، ولكن الجميع سائرون لا يعيرون المشيعين التفاتاً فلم يكن أمام المشيعين إلا أن يحملوا النعش لمدة عشر دقائق، ثم يتركونه فترة أخرى يستريحون فيها ويلتقطون أنفاسهم. حتى وصلوا إلى القبر بصعوبة بالغة وشعر بعضهم أنه قد أدى ما عليه فانصرف وبقي مع الجثة الابن أحمد والجار حسن.

وأرسل المستشار حسن الابن أحمد لكي يحضر من القرية أحد البناءين لكي يغلق عليه فتحة القبر بعد دفنه، وحاول المستشار إدخال الجثة بمفرده وكان هذا شيئاً عسيراً، كان يدخل إلى القبر ويشده قليلاً، ثم يشعر بالاختناق فيخرج ويدفعه من الخارج قليلاً قليلاً، حتى أتم مهمة إدخال الجثة إلى القبر بعد حين.

وجلس المستشار حسن بجوار القبر يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، ويدعو للمتوفي بالرحمة والمغفرة، ثم فاضت عيناه بالدموع وهو يردد قول المولى عز وجل :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ صدق الله العظيم.

تمت
المنصورة في
٢٠١٤/٦/٨

obeikandl.com

obeikandl.com